بسم الله الرحمن الرحيم

(حجج ضعيفة للإيمان)

أقصد بالإيمان بالحصري كأن يأتي شخص ويقول "ديني هذا ومذهبي هذا هو الحق والبقية كلهم على باطل"، وهو الشأن الشائع في الأمم. حين نظرت في الحجج التي يلقيها أدعياء الإيمان الحصري على اختلافهم، أو القدر الذي اطلعت عليه على ممر السنين، وجدتهم يحومون عادةً حول حجج ضعيفة وبعض الحجج القوية. هنا أريد تعداد الحجج الضعيفة التي أكاد أجزم بأن الغالبية العظمى من المؤمنين بأي إيمان حصري لا يخرجون عنها، وإن وجدت خارجاً عنها ومع ذلك هو مؤمن، فتمسّك به بيديك وأسنانك إن استطعت لأنه نادرة الدهر. فالحجج التي سنذكرها بإذن الله فيها بيان ما يتمسّك به أدعياء الإيمان الحصري، لكن تنفع أيضاً من وجوه أخرى لإظهار ضعف سبب الإيمان بشكل عام. أي طريق تحصيل الإيمان الديني والوجودي وعقيدتك في الوجود والكون ونفسك، هذه الطريق بعضها ضعيف وهو ما سنذكره هنا، وبعضها قوي وليس هذا موضعه، لكن هنا نريد إظهار جانب النفي على طريقة "لا إله إلا الله"، فهذه المقالة عن شقّ "لا إله"، أي نفي ما لا يصح التمسّك به، فإذا عرفنا ذلك كنّا أقرب إلى معرفة "إلا الله" أي ما يصح التمسّك به والبناء عليه من أسباب الإيمان.

لدينا هنا ست عشرة حجّة أصلية، أربعة منها لها فروع عددها تسعة. سنذكر إن شاء الله كل حجّة برقمها، ثم نذكر الفكرة التي تشرح حجّية الحجّة، ثم نذكر الرد الذي يبيّن سبب ضعفها وعدم انتاجها للمقصود منها عند الأدعياء. فتعالوا ننظر.

...

١-الإحساس.

الفكرة : نفسي تحسّ بأن إيماني صحيح، لذلك لابد أن يكون صحيحاً.

الرد : نفسك تحسّ بذلك لأنك تربّيت على ذلك، أو لأنه توجد لديك دوافع نفسانية تجد نوعاً من الإشباع والحماية بذلك الإيمان، أو لأنه لديك مصلحة اجتماعية مادية يتم تلبيتها عبر الإيمان بالشيء.

والدليل على ذلك أن الإحساس الذي تجده أنت في إيمانك بالإسلام مثلاً، هو نفس الإحساس الذي يجده ويدعي وجوده عنده مَن يؤمن بالمسيحية أو اليهودية أو غيرها من الأديان. مثل داخل الإسلام ستجد السنّي يقول أنه يحسّ أن مذهبه هو الحق وبقية المذاهب باطلة، وهكذا الشيعي وغيره. إحساسك يرجع إلى أسباب معلومة بشكل عام، بدليل أننا حين نغيّر هذه الأسباب يتغيّر الأثر. فأنت تربّيت في بيئة معينة فخرجت تؤمن بدين معين، وغيرك من الناس بل قد يكون أخاً توأماً لك لكنه تربّى في بيئة أخرى مختلفة فخرج يؤمن بدين مختلف. وهكذا نجد أيضاً الدوافع النفسانية تؤثر في الارتياح والاطمئنان لأصناف الإيمان المختلفة، فمثلاً، البعض فعل فعلاً شنيعاً في ماضيه ويريد التخلّص منه فوجد أن "الإسلام يجبّ ما قبله" فاختار الإسلام لكي يتخلّص من إحساسه بالذنب بسبب جرمه الماضي. البعض يشعر بحقارة نفسه ويريد الاستعلاء على الخلق، فيدخل في عقيدة تُعلّم أن أصحاب هذه العقيدة هم الأمّة المختارة وكل الأمم تحت أقدامها. وهكذا. طبعاً الأمر ليس دائماً بهذه البساطة، لكن أحياناً هو فعلاً بهذه البساطة، أذكر قبل فترة شاهدت وثائقياً عن انتشار الإسلام في منطقة معينة وأجروا لقاءاً صحفياً مع إحدى المسلمات الجدد وشرحت هي سبب إسلامها بأنها قامت بعملية إجهاض لجنينها وشعرت بذنب عظيم وأرادت التخلّص من هذا الشعور وسمعت أن الإسلام يجبّ ما قبله فدخلت في الإسلام وخرجت من الكاثوليكية على ما أظن. ثم توجد المنافع الاجتماعية والسياسية، وهذه كثيرة جداً عبر التاريخ والحاضر، حيث تجد الناس تميل إلى اتباع الطائفة الدينية المهيمنة في مجتمع معيّن والمدعومة من الحكام السياسيين، ولا أظن أن عاقلاً سيدّعي أن أكثرية الناس في تلك البلاد كلهم قد نظروا ببحث عقلي مجرّد وتوصّلوا إلى أن المذهب المدعوم من الحكومة هو المذهب المعقول والحق والذي يؤيده الكشف الصريح، وهم هم العوام-بنفس القدرات العقلية والميول العامة- الذين نجدهم في مجتمع مجاور بحكومة تدعم طائفة دينية مختلفة فإذا بهم يعتنقون ذلك المذهب المختلف والمناقض للأول، تفسير ميول العامّة في الأمم للمذهب المدعوم من الحكومة بأنه طلب للمصلحة الاجتماعية والسياسية وعدم التصادم مع الدولة وتعظيم القوي مادياً أقرب للمعقولية من ادعاء بأن كل هؤلاء الناس ممن لعلهم لا يفهمون شيئاً في علوم الدين قد توصلوا بصحيح النظر وسلوك العرفان إلى حقيقة المذهب الرسمي للدولة.

يمكن تجربة صدق هذا التفسير للإحساس الديني عبر تغيير العوامل الثلاثة، أي ننظر في إحساس الشخص بعد فترة من التخلّص من أثر التربية والمزاج والدولة، وهذا صعب جداً لكن بعضه أسهل من بعض، كتأثير الدولة كأن تنضم واعياً إلى المعارضة أو تهاجر إلى بلد لا دين

رسمي للدولة فيها وفيها خليط من كل الأديان والمذاهب، وكذلك بأن تحلل واعياً مزاجك وتربيتك وتسعى بجد ونية لمعاكسة ما تربّيت عليه كأن تكون تربّيت على مذهب فتسعى بكل جهدك لكي تنقض هذا المذهب وتستمع لكل ما يقوله المخالفين له وأنت راغب في إيجاد حجّج قوية لنقضه أو إضعافه، وهكذا في تحليلك لنفسك ومزاجك الخاص أيضاً وتستعين على ذلك برأي أصحاب أو أطباء نفس لكي يبيّنوا لك مزاجك ومحدوديتك بحيث يصبحوا لك كالمرآة التي ترى فيها نفسك فتحارب قيودك النفسية بقواك العقلية الواعية.

الحاصل، أن إحساسك مهما بدى قوياً لك يجب أن تعرف أن إحساس غيرك بنفس القوة أو أشد قوة. ولا أقلّ أنه يوجد من يحس مثلك من أتباع الأديان والمذاهب المناقضة لإيمانك. وهذا وحده يكفي لإظهار ضعف الاعتماد على الإحساس كسبب للإيمان.

...

٢-الرؤيا. الفرع الأول رؤيا المنام، والفرع الثاني رؤيا اليقظة.

الفكرة : الرؤيا فيها نوع من الاتصال بالعالَم الآخر، عالَم الحقيقة الإيمانية. فلمّا حصلت لي بالرؤيا صورة تدلّ على معنى ما يصدّق إيماني أو يدلّ عليه، دلّ ذلك على أن إيماني صحيح.

الرد: الرؤيا إما في المنام وهي الأكثر، وإما في اليقظة وهي حالة ما بين النوم واليقظة الكاملين، وهي أقوى وأندر ولا يدعيها عادةً إلا قلّة من أتباع الإيمان المافوق طبيعي، فنجد العوام من كل أهل الإيمان يرون الرؤى المنامية، لكن رؤى اليقظة موجودة لكنها تختصّ عادةً بكبار أهل ذلك الإيمان.

مدار الرؤيا مناماً أو يقظة على وجود عالَم آخر ما فوق الخيال، وهذا العالَم يتجلّى ويتنزّل في الخيال ويكشف حقائق معينة للرائي. من أمثلة ذلك التي وقعت عليها ليلة أمس هي رؤيا أم حبيبة الصحابية حين هاجرت إلى الحبشة مع زوجها فارتدّ زوجها إلى النصرانية وقد رأته قبل ما يعلن ردّته لها في منامها وهو حسب تعبيرها في أسوأ حال و قد تغيّرت صورته. طبعاً زوجها لم يبالي برؤيتها. لكن بالنسبة للرائية فإن المفروض-مع قبول صدقها-أن الله تعالى بيّن لها أن النصرانية شيء سيء والإسلام شيء حسن عنده تعالى، فكشف لها عن المستقبل وهو أن زوجها سيتغيّر إلى "أسوأ حال" فالنصرانية ليست فقط حالة سيئة بل "أسوأ حال" أقصد الارتداد لها بعد الإسلام على الأقل، ويوجد تغيّر في الصورة بمعنى أن النفس لها صورة عند

الله ويمكن أن نقول بأنها صورة الفطرة الإلهية السليمة التي فطر الناس عليها لكن النصرانية فيها تغيير لهذه الصورة الفطرية وتغيير دينك هو تغيير لصورتك أي الدين ليس مجرّد فكرة في الذهن لكنه يغيّر صورتك النفسية تماماً في العالَم الآخر، فتبيّن لأم حبيبة بالرؤيا أن النصرانية شيء سيء في الآخرة.

أسباب ضعف الاعتماد على الرؤى من هذا القبيل هو لأن الرؤى موجودة عند كل الأمم المعروفة يقظة ومناماً، ولا أقلّ أننا نجدها عند أتباع الأديان المختلفة المشهورة. أنا نفسي سمعت في حلب من مسيحي دخل في حادث سيارة وقال لي بأن مريم العذراء جاء وأنقذته ورآها يقظة، وما أكثر مثل هذه الرؤى عند المسيحيين، والمسلمون طبعاً ينكرونها بشكل عام. في الإسلام، الشيعة الإمامية يروون رؤى منام ويقظة لا يحصرها إلا الله عن رؤية الإمام المهدي محمد بن الحسن الثاني عشر تحديداً، ولا يصدّقهم الإسماعيلية ولا غيرهم من غير الشيعة بشكل عام. وهلمّ جرّاً. الرؤيا دعوى من الرائي، وهي شيء في نفسه هو، فإنها إن كانت حجّة ولنفرض أنها حجّة فهي حجّة للرائي فقط أو عليه فقط، لكن بالنسبة لغيره هم لا يرون الرؤيا لكنهم يسمعون حكايته هو عن الرؤية، فإن افترضنا أن الرؤيا حجّة فإن سماع خبر الرؤيا إذن ليس حجّة لأنه غير مبدأ "الرؤيا حجّة"، فحتّى لو سلّمنا بهذا المبدأ فإن " سماع خبر الرؤيا" يختلف عنه وهو مبدأ آخر. زد على ذلك أن تذكّر الرؤيا المنامية أمر صعب بشكل عام وقد يدخل فيه الوهم والنسيان، ويحق لمن يسمع الرؤيا افتراض ذلك. زد على ذلك أن رؤيا المنام قد تكون انعكاساً للخيال، وقد تكون لعباً من الشيطان باعتقاد الجميع، وقد تكون تجسيداً لشيء في اللاشعور أو لصوت أو إحساس جسماني كالعطشان الذي يرى شلالات ماء، وقد وقد. فكون الرؤيا حقيقة إلهية أخروية تجسّدت بصورة خيالية، هو احتمال من بين احتمالات كثيرة باعتراف الكل، فافتراض أن هذه الرؤيا التي رآها فلان مع تسليم صدقه ودقة روايته لها، هي رؤيا إلهية بدلاً من كل الاحتمالات الأخرى هو افتراض لا ندري ما المبرر له ولا ما المُرجِّح له على بقية الاحتمالات الممكنة واقعياً بل هي النمط الغالب على رؤى الناس. ثم بعد كل ذلك قد يكون للرؤيا تأويل يختلف عن صورتها، وهذا أيضاً مبدأ مُسلَّم عند مَن يقول بالرؤيا كرسالة غيبية، إلا أن المشكلة أننا لم نولد ومعنا كتاب تفسير أحلام من حضرة عالم الغيب بحيث يكون لكل صورة معنى محدد، فلعلك ترى الشيء ويكون له تأويل ومعنى يختلف عن صورته، أو يكون رؤيا عكسية كأن ترى أنك مرفوع فإذا أنت هابط أو حي فإذا أنت ميت، فأحياناً تكون الرؤيا مباشرة وأحياناً تعكس الحقيقة وهذا احتمال آخر يبطل الاستدلال أو يضعفه على أقل تقدير.

على هذا النمط، سنجد أن قضية الرؤيا هذه بشكل عام ضعيفة ومشكوكة. وإن كانت لها قيمة فعلية فهي للرائي فقط، وبحسب ما يؤتاه من فهم من لدن الغيب الذي أراه إياها. كلاهما شيء لا يستطيع أن يقرّ به ويجد حقيقته إلا الرائي. أما البقية فأقصى ما يمكن لهم هو الثقة بالرائي وما فهمه، وهذا أمر راجع لهم لعلنا نأتي عليه لاحقاً.

حتى الرائي ينبغي عليه عدم التسرع والبناء فقط على رؤيا منام أو يقظة. أليس من الغريب والذي ينبغي أن يجعله يتشكك قليلاً هو أنه لم يرى إلا شيئاً يعرفه من قبل أو سمع بمثله. فلو كان فعلاً قد رأى شيئاً حقيقياً بطريقة موضوعية، فليقس حاله على رؤية الطبيعة، حين تذهب في الغابة وترى حيواناً لأول مرّة في حياتك لم تره من قبل ولم تسمع به، فأنت تعرف أنك رأيت موجوداً حقيقياً لأنه خارج عن دائرة معرفتك أصلاً فلم يخترعه خيالك. أما أن يقول الشيعي الإمامي مثلاً "رأيت الإمام الثاني عشر" الذي لم يزل منذ صغره يسمع اسمه وقصصه ويتأمل قدومه وخياله متشبّع به وتشرّب اسمه وصورته الذهنية بسبب كلماته المنقولة عنه أو المنسوبة إليه والحكايات المروية عنه، ثم يقول "رأيته" يقظة أو مناماً، فهذا ينبغي للعاقل أن يمسحه بشيء من الشك أو على الأقلّ لا يبني عليه كثيراً. أن ترى ما تعرف ليس مثل أن ترى ما لا تعرف ثم يتبيّن لك ما هو.

العوام من كل أمّة يروون مرائي حدثت لشيوخهم أو سلفهم أو لهم هم كأدلة على أنهم فقط الذين خصّتهم العناية الإلهية بالحق ويرون ذلك حجّة قوية أو كافية للاستدلال على صدق ما هم عليه. فينبغي أن يعرفوا أن العوام من غيرهم بل والشيوخ من غيرهم من الأمم لديهم مثل ذلك تماماً. فإما أن تقرّوا بكل الرؤى وإما أن تنكروا كل الرؤى كحجّة للإيمان، هذا هو الموقف الأسلم والأصدق. أما أن تقول "سأصدّق برؤيا شيخ حارتي لأني عاشرته وأحببته، لكني لن أصدّق شيخ الحارة الأخرى" فهذا بحد ذاته يكشف عن مدى ضعف وسوء إيمانك ومدى تجذّر الحكم بالهوى في قلبك.

أنا نفسي لدي من قصص رؤيا المنام واليقظة لو صدّقني الناس فيها لوجب عليهم أن يأتوا كلهم ويسجدوا لي كما سجد الملائكة لآدم. لكن هل يحصل ذلك؟ لا. هل للناس حق في عدم تصديقي؟ طبعاً، ما أدراهم لعلّي كذّاب، لعلّي متوهم، لعلّي رأيت لكنهم لم أفهم المعنى، لعلّي فهمت المعنى لكنه شيء خصّني الله به وليسوا مكلّفين باتباعه، لعلّ لديهم شخص آخر رأى مثل ذلك أو أعلى منه، لعلّ ولعلّ. نعم، قد يثق بي البعض وينشرح صدره ويصدّقني ويفهم

عنّي، أو يرى أثراً من ذلك عليّ فيعتبره، لكن هذه ليست حجّة كافية بحد ذاتها لإثبات أن ما أنا عليه من إيمان وطريق هو الحق لا ريب فيه وكل من سواي على ضلالة وباطل. حتى إن صدّقت أنا في نفسي بذلك، فإنه ليس لي الحق في أن أصول وأجول بمرائي عين قلبي وأعتبر كل ما سوى ذلك لا معنى له. وهكذا أقول لكل أحد. مثلاً، إن كان السنّي يريد أن يحتج على صدق صحيح البخاري بأن فلان روى أنه رأى عمود من النور ينزل على ضريح البخاري، فتعال وأنا أخبرك عن إنسان معاصر لك نزل عليه عمود من النور وسمع كلام الله من الله، فهل تتبع صحيح كلامه أيضاً بتسليم مطلق بسبب ذلك؟ وقس على ذلك.

...

١-المعجزة. الفرع الأول الخبرية. الفرع الآخر المشهودة.

الفكرة: المعجزة فعل خارق للعادة، وبما أن العادة وضعها الله فإن خرقها لا يكون إلا بيد الله، فلما أظهر إنسان ما معجزة لم يستطع غيره من الناس أن يقوم بها دلّ ذلك على أنه مؤيد من الله أو لديه قوة إلهية علوية.

الرد: ادعاء المعجزات في الماضي أمر موجود عند عموم الأمم أيضاً. وفي الحاضر أيضاً يوجد من يدعي ذلك، لكن إلى الآن لم نجد أحداً من أتباع الأديان الكبرى يصول على الناس بادعاء معجزة يتحدّى بها الجميع. (سأذكر القرءان بعد قليل إن شاء الله). فالمعجزة بمعنى خارق الطبيعة، كشقّ البحر بضربة عصا أو إحياء ميت الجسم ونحو ذلك. نعم، توجد دعاوى من طوائف صغيرة هنا وهناك يقوم فيها شخص "كاريزمي" مثلاً بادعاء أنه يشفي المرضى بلمسة يده، لكن بشكل عام تبيّن أنهم نصابين وهي خدع وفي بعض الحالات نوع من الإيحاء النفسي وليس معجزة على طريقة ما نجده في الكتب. ومن هنا فرّقنا بين المعجزة الخبرية أي التي أخبرنا شخص أنها حصلت، والمعجزة المشهودة وهي التي شهدناها بأنفسنا.

البدء بإظهار ضعف حجّية المعجزة هو أن ننظر في تعريفها. المعجزة فعل خارق للعادة. هذا بحد ذاته غير مُسلَّم الوجود. لأن "العادة" مفهوم نسبي، فنحن لم نشهد العالم من أول وجوده إلى آخر وجوده لنعرف ما هي "العادة"، ولم نشهد كل إنسان على كل الأرض وفي كل زمان لنعرف ما هي "العادة" من فعل الإنسان. نحن لا نعرف ذلك أصلاً. فأن ندّعي أن فعلاً ما خرق العادة لابد أن نكون ممن يعرف بتحقيق ويقين ما هي العادة. أما ما نشهده نحن في عمرنا القصير وبوسيلتنا المحدودة في العلم بالطبيعة، فهو كمن يقيس معرفته بالقصر عن

طريق النظر في جحر فأر في طرف جدار القصر الخارجي. بناء على ذلك، ينتقض أصل مفهوم المعجزة.

لكن افترض أننا عرفنا العادة. ولنفرض أننا شهدنا بأعيننا الآن شخصاً يضرب البحر فينفلق مادياً. فهل هذا وحده دليل على أن الله هو الذي فعل ذلك؟ كلا. لأننا لا نعرف جميع الموجودات في الكون المشهود والغائب عنا، ولا نعرف جميع قدرات هذه الموجودات، بل لا نعرف حتى ما هو العلم الذي اطلع عليه هذا الضارب العصا ولعله ملك علماً فعل به هذا الفعل ونحن لا ندري، فمن جهة لعل موجوداً آخر غير هذا الضارب العصا لكن أيضاً غير الله فعل هذا الفعل الخارق للعادة، فالوجود ليس الله والإنسان، بحيث يكون إذا لم يفعل الفعل الإنسان فالله هو الذي فعله، كلا، الوجود وباعتراف جميع الديانات في موجودات كثيرة. بالنسبة للنمل، كل نملة ضعيفة وصغيرة، لكن فلنفرض أن نملة استطاعت التواصل مع طفل لديه مُكبِّر، وقامت نملة بتهديد أهل قرية النمل بحرق القرية كلها في حال لم يطيعوها ويعطوها خبزاً أكثر من الحصّة المعتادة، فعصاها أهل قرية النمل، فتكلّمت النملة مع الطفل الذي قرية النمل في حديقة بيته الخلفية، فقام الطفل بتوجيه مُكبِّره على القرية وأحرقها عن بكرة أبيها حتى لا تسمع لها ركزاً طبعاً بعد إخراج نملته المصطفاة من القرية وإنجائها من هذا العذاب المهلك، نعم بالنسبة للنمل في القرى الأخرى هذا الفعل خارق للعادة وإخبار النملة لقومها بقدوم الهلاك يدل على اطلاعها على الغيب، لكن هل هذا وحده كاف للنمل في بقية القرى للاستدلال على أن الله تعالى هو الذي أحرق القرية أم أنه يوجد طفل يلعب في حديقته الخلفية ساعد النملة وأحرق بلعبة في يده القرية. كذلك الحال هنا. اركب طائرة واصعد قليلاً وسترى الناس تحتك بكل مدنهم مجرّد نمل بل أصغر ولن تراهم. فما أدرانا لعل موجوداً آخر ساعد على فلق البحر. بل خذ مثلاً أقرب. حين وصل بحّار انجليزي إلى جزيرة من البدائيين، أشعل ولاعة أو قداحة معه فخرج منها النار بضغطة زر من يده، فاعتقد أصحاب الجزيرة أنه إله لأنه يخلق النار من عدم، لكن بالنسبة لبقية العالمين ممن يعرف صناعة القداحة الأمر أهون من ذلك ولا يلفت حتى أنظارنا، كذلك لو وضعنا القنبلة الذرية في قرية من القرى القديمة فإن الناس سيعتقدون بأن صانعوا هيروشيما آلهة، لكن الذي يعلم هذا العلم لا يلتفت إليه ويعتبره طبيعياً. كذلك الحال هنا مع كل صاحب معجزة. فحتى إن افترضنا أنها حصلت أمامنا، فإن وجود موجودات أخرى في الكون وَإمكان اطلاع الفاعل على علم لا نعرفه نحن، كافٍ لإدخال الشك في كل معجزة ولو كانت مشهودة وعظيمة ولم تحكي الأمم عن مثلها لا في الماضي ولا في الحاضر. فما بالك وهذا نفسه غير موجود في كل دعاوي المعجزات المعتبرة.

إذن، نحن لا نعرف العادة بيقين حتى نعرف خرقها. ونحن لا نعرف جميع الموجودات في الوجود وقواها لنعرف مصدر الفعل الخارق إن شهدناه. ونحن لا نعرف جميع العلم وجميع ما اطلع عليه صانع المعجزة من علم لنعرف المصدر الحقيقي للفعل. هذه الثلاثة كافية لإدخال الشك على أي معجزة مشهودة. وأما المعجزات الخبرية المنقولة والمحكية فأضعف من ذلك بكثير إذ يدخل فيها جميع ما مضى بالإضافة إلى ضعف المرويات المنقولة الشفهية والمكتوبة وكل الشكوك الداخلة فيها. وهذا ليس تعنتاً، فأنت ترى كل أمّة وكل أتباع مذهب لا يقبلون ما يحكيه غيرهم من حكايات المعجزات والكرامات. الوهابي لا يصدّق بكرامات الصوفية ولو قرأ ألف كتاب من كتب كرامات الأولياء للنبهاني. والصوفي والوهابي لعله لا يصدّقان ما يرويه المسيحيون من كراماتهم، والثلاثة لا يصدّقون ما يحكيه اليهود، والأربعة لا يبالون بما يحكيه الهنود، والخمسة بالتأكيد ينكرون معجزات البوديين. انظر كيف يتعامل أتباع مذهب معين مع أتباع المذاهب الأخرى في باب المعجزات، وطبّق نفس معاملتهم هذه عليهم هم، وسيكفيك هذا لردّ دعواهم. أعتقد أن هذا إنصاف عظيم ليس بعده إنصاف.

أعرض دعوى في زماننا هذا عن المعجزات هي دعوى المسلمين بأن القرءان معجزة. لماذا؟ لأنه "لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً". لا أريد أن أذكر قولي في معنى هذه الآية لأني الآن خصم، لكن سأذكر ما يكفي منها وحولها لإبطال استدلالهم بها إن شاء الله.

واقعياً نحن لم نرى اجتماع الجن والإنس لنعرف هل استطاعوا أن يأتوا بمثل هذا القرءان أم لا. بل لم نطلع حتى إن كان الجن قد أتوا بمثل هذا القرءان، فهم حسب المشهور كائنات أخرى من عالم آخر لا نستطيع التواصل معهم، بل التواصل معهم يجعلك ساحراً أو كاهناً أو لا أدري ماذا وستعرّض نفسك للقتل على أيدي أصحاب هذه الدعوى نفسها، أو على الأقلّ سيكذبونك أنك تواصلت مع الجن. إذن نحن لا نرى الجن، ولا نعرف هل أتوا بمثل هذا القرءان، وإن حاولنا الاتصال بهم إما سيقتلنا أصحاب الدعوى وإما سيكذبوننا. فهذا احتجاج بشيء مع إنكار كل طريق لإثبات عكسه. دعوى فارغة لا يعجز عنها أحد. أستطيع أنا أن أدعي بأن جميع الجن قد قرأوا كتابي وصدّقوا بي واعتقدوا ولايتي وكل ليلة أعقد لهم مجلساً للذكر والفكر، فهل تصدّقون ذلك؟ كلا، حسناً، هنا الأمر نفسه، فإننا لا نعرف ماذا فعل الجن ولا نستطيع أن نعرف. كذلك الحال في الإنس، نحن لا نعرف جميع ما فعله الإنس في الماضي مع القرءان، ويكفينا أنه حين حاول البعض تأليف مثل القرءان فإن الفقهاء أنفسهم مع الدولة المساعدة لهم قد حاربوهم وحكموا بردّتهم أو لم يهتمّوا بتجربتهم حق الاهتمام لرؤية هل فعلاً

يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرءان ونحو ذلك كما قيل عن الحلاج أو ابن الراوندي أو المعرّي، ثم المسلمون قد انتصروا على العرب في ذلك الزمان، ودخلت القبائل في الدولة الجديدة وصاروا بصدد البحث عن الغنائم عبر الحرب والفتوحات العسكرية. أما القرءان نفسه فرأي أكثر قوم النبي العرب العلماء بالعربية فيه قبل وجود جماعة سياسية أو دولة للنبي، فتعالوا نسمعه من الزمخشري ففي ذيل الآية ١٢ من سورة هود كتب: { لَوْلاَ أُنُزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ } وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرّك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم واستهزائهم واقتراحهم}. انتهى. إذن لم يكن القرءان "معجزة" خارقة بحيث تكون كفلق البحر أو إحياء الموتى تصدم الحواس وإن تشكك فيها العقل. هذا أوّلاً.

ثانياً، الآية قالت أن الجن والإنس لا يأتون بمثله، لكن في الوجود كائنات أخرى غير الجن والإنس، مثل الملائكة، والاعتقاد بأن الملائكة لا يعصون الله هو اعتقاد إسلامي لكن في أديان أخرى قد يوجد ملائكة يعصون بل يتحوّلون إلى معارضين لله، بالتالي نحن لا ندري لعل ملائكة من هؤلاء الذين يكذبون ويعصون الله قد أوحوا بالقرءان إلى النبي. النبي أقرّ بوجود كائنات غير الجن والإنس، وأثبت لها قوى خارقة أيضاً، وهذا كافٍ للمتشكك من باب "من لسانك أدينك".

ثالثاً، إن جاء شخص بمثل القرءان في قوافيه وصيغته سيسخر منه المسلمون ويقولون " انظروا إليه يحاول تقليد صورة القرءان" كما يفعلون فعلاً إلى اليوم حين يحاول البعض كتابة كتاب يشبه القرءان. لكن إن جاء شخص بكتاب آخر ليس مثل القرءان في الصورة، فإنهم يقولون عنه "أين القرءان من هذا". يعني لا يوجد مجال معهم. عناد مطلق. إن جاءوا بالشبيه أنكروه لأنه شبيه، وإن جاءوا بالمختلف أنكروا أن يكون مثله.

رابعاً، إن جاء شخص ينتقد القرءان أخرجوا له ألف عذر وعذر لإثبات وجود وجه حق والأنسب فيه، لكن حين ينتقدون هم الكتب الأخرى لا يقبلون من الآخرين مثل أعذارهم أو أخفّ. وهذا غير منصف.

خامساً، فلنفترض فعلاً أنه لم يوجد إنسان إلى الآن، ولا جن ولا إنس بل ولا ملائكة، جاء بمثل هذا القرءان، فمع ذلك هذا لا يكفي للدلالة على أنه من عند الله، لأننا لا ندري لعل من بعدنا يأتي بمثل هذا القرءان، لعل شخصاً آخر لديه مثل قوة محمد وموهبته يأتي بمثله، وهذا ليس تعنتاً، لأننا رأينا التاريخ البشري ومن أول من نطق بالعربية إلى أن ظهر محمد وهي آلاف السنوات، لم يوجد إنسان نطق بكتاب مثل القرءان، فهذا وحده يبرر لنا الاعتقاد بأنه

يمكن لو انتظرنا آلاف السنوات الأخرى أن يظهر إنسان آخر يأتي بكتاب مثل القرءان، فكما أن الفترة التي قبل محمد مهما طالت لم تكن دليلاً كافياً على عدم ظهور إنسان مثل محمد وقرآنه، كذلك الفترة التي بعد محمد مهما طالت ليست دليلاً كافياً على عدم ظهور إنسان مثل محمد وقرآنه. بل ظهور محمد دليل على إمكان ظهور مثل محمد، لأن ظهوره لو كان مستحيلاً لاستحال أول مرة، لكن ومع استعمال حجّة قرآنية "أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم".

سادساً، القول بأن في القرءان إحساساً مختلفاً يرجع إلى قضية الإحساس وهي الحجّة الضعيفة الأولى للإيمان، فراجعها. ويكفي أننا نجد في العرب ومن أعلم الناس بالعربية في عصرنا وهم قوم ليسوا من المسلمين، قد قرأوا القرءان ولم تخشع قلوبهم للإيمان بمحمد وألوهية القرءان، بل لا زالوا على إيمانهم النصراني أو اليهودي أو الإلحادي. فلا تقل لي أن العامّي الذي لا يعرف الفرق بين الفاعل ونائب الفاعل يستطيع أن يجد قوة معجزة القرءان اللغوية ولا يستطيع أن يجدها البستاني أو بابا الأقباط.

هذه الأسباب كافية لإدخال التواضع على العاقل في ادعاء إعجاز القرءان، هذا أقلّ ما يقال. هذا لا يعني أنه ليس له ادعاء ذلك، لكن مع شيء من التواضع ليقل ما يشاء، فالكلام مجّاني في هذا العالَم والحمد لله.

...

٤-الإيجابيات الأخلاقية والتشريعية. الفرع الأول في النصّ. الفرع الثاني في الواقع.

الفكرة: بما أن نصوصنا الدينية فيها إيجابيات أخلاقية وتشريعية، وكذلك أفعال أمّتنا، والإيجابية خير والخير من لدن الخير الأعلى سبحانه، خصوصاً إذا كان الخير فيه تضحية بشهوة دنيوية ومصلحة مادية، فهذا دليل على أن إيماننا حق.

الرد: أوّلاً، إذا نظرنا إلى تاريخ وواقع كل أهل إيمان سنجد فيه من القصور والتشويه بل والجرائم ما الله به عليم، لذلك بمجرّد ما تتم الإشارة إلى هذه المخازي التاريخية والواقعية يبدأ عادةً أصحاب الأديان والمذاهب بالتدرّع بفكرة "النص بدلاً من الواقع"، يعني عظمة إيمانهم ترجع إلى عظمة نصوصهم وأما التطبيق الواقعي للبشر ففيه قصور. حسناً، هذا القدر من اعترافهم يجعلنا نُبعد فكرة الاحتجاج بالتطبيق الواقعي للامتياز وللإيمان عموماً.

ثم إن التطبيق الواقعي حتى إن افترضنا المساواة فيه بين الخير والشر، فإن هذا يلغي الاحتجاج بالخير للامتياز، لأن الشر سيعارضه. فمَن قال لنا "عندنا أطيب الناس" سنقول له "لكن عندك أيضاً أخبث الناس". وعلى هذا النمط يسقط الاحتجاج بالطيب لوجود الخبيث، ويسقط أيضاً في المقابل الاحتجاج بالخبيث لوجود الطيب. وأما الموازنة بينهما فقضية لا تهمّنا هنا ولا نستطيع أن نفصل فيها برأي معتبر إلا إذا أخذنا أمّة مخصوصة ونظرنا في حاضرها وماضيها. فعلى سبيل المثال وباختصار، إذا نظرنا في أمّة الإسلام، سنجد في الجانب السياسي الأغلبية للظلم والمظالم والقهر في الماضي والحاضر، لكن إذا نظرنا إلى الجانب العلمي والأدبي سنجد الكثير جداً من النور والعظمة والرقي لكن سنجد أيضاً تعصّب وتكفير وضيق أفق وسجن للعلماء وقتل للمخالف وبغض للعلوم والفكر الحر عند الكثير من الناس. وإن قالوا لنا "عندنا أمير مثل عمر بن عبدالعزيز في تاريخنا المجيد"، ففضلاً عن ضعف أسطورة عمر هذه من وجوه مهمة وجذرية، لكن حتى لو افترضنا السلامة المطلقة، فإننا سنقول "لكن عندكم أيضاً مَن قال عنه عمر بن عبدالعزيز نفسه أنه لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج الثقفي لغلبناهم أو كما قال". وإن جاءوا بفقيه قضى سبعين سنة في الدراسة، سنأتي لهم بفقهاء كثر جداً قضوا حياتهم في طلب الدنيا وبالباطل والتحريف وأرادوا الجاه والرياسة. وقس على ذلك.

إذن، الماضي والحاضر بشكل عام بين الأمم إما شيء لا يمكن الحكم عليه بيقين، وإما شيء يمكن الموازنة فيه بينهم بنحو لا يفضل أحدهم الآخر من كل وجه بحيث يقطع العذر تماماً، وإما أن حاضر بعض الأمم في جانب أعلى لكن حاضر أمم أخرى أعلى بالنسبة لمعايير أخرى ومقاييس يعتقد بها الناس ويرونها أولى من المقاييس التي حكمنا فيها لصالح الأول. فقد نقول نحن أن حرية التعبير والدين أعلى قيمة في أي أمّة، فنفضّل أمّة على أخرى، لكن أكثر الناس وفي كل مكان بل وحتى في الأمّة التي فضّلناها في زماننا قد كانوا يرون أو لا زالوا يرون هذه الحرية فوضى وسيئة ومكروهة أو حتى غير موجودة بكل أبعادها أو غير ذلك من انتقادات واختلاف في اختيارات وأمزجة الناس. فدعونا من الواقع ولننظر في النص، هل نجد فيه ما تفضل به أمّة أمّة؟

بشكل عام، كل أهل إيمان يستطيعون الإتيان بنصوص فيها أمثال عالية جداً، لعل قلة نادرة منهم يطبّقونها هذا إن وجدت هذه القلة، بل لعل القلة التي تطبقها فعلاً تكون مكروهة منبوذة في مجتمع المتدينين ذلك. فوضع النصوص سهل. لكن مع ذلك، كل أهل إيمان سيرون ما

عندهم عين العقل والحكمة وما عند غيرهم عين الجهل والسفاهة، لا أقل في كثير من الأمور. لنضرب مثال، المسلم يقول بتعدد الزوجات والمسيحي يقول بعدم تعدد الزوجات، كل واحد سيقول ويرد عليه صاحبه ولن نصل إلى شيء حقيقي يستطيع فيه حتى المسلمون أن يجمعوا عليه أو غيرهم، بل ستجد في المسلمين مَن يؤيد عدم تعدد الزوجات في الواقع وإن أقرّ به في النصّ أو لا أقلّ يراه خلاف الحكمة لنفسه ولمن يريد قضاء حياة معتدلة في العبادة والتعلّم، وبعض المسيحيين ستجده مع إنكاره للتعدد في النص يؤيد حكمة التعدد أو حتى عدم الزواج أصلاً وقضاء الوطر مع العشيقات في الواقع.

المظاهرات السياسية، خير أم شر؟ ستجد بعض المسلمين يقول خير وبعض المسلمين يقول شر، بعض المسلمين سيأتي بنصوص تؤيد المظاهرات وبعض المسلمين يأتي بنصوص تناقض المظاهرات. وقس على ذلك. ففضلاً عن الاختلاف على كل قيمة بشكل عام ما بين الأديان، سنجد في الدين الواحد اختلافاً شديداً يكاد لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا دخلها.

ما يقال أنه خير يميّز أمّة، سنجد مثله في أمم أخرى، وسنجد أمم أخرى تثبت نظرياً أو عملياً أو بكلاهما أن ذلك الخير في الواقع شرّ أو ضرره أكبر من نفعه. مثلاً، التصدّق على الفقراء. ستجد التصدق على الفقراء في عموم الأرض بل لا يخلو منها مجتمع مؤمن أو ملحد بشكل عام. لكن ستجد البعض يثبت أن التصدّق وإعطاء العاجزين أو العاطلين عن العمل لسبب ما فيه نوع من السرقة من ضرائب العاملين أو حثّ على الكسل وهو مضرّ بالنفوس والاقتصاد أو كره للفقر وهو مفيد روحانياً أو غير ذلك من اعتبارات.

لا يوجد شيء يقال عنه خير في نص إلا ويوجد في كل الأمم ما يوازيه أو يساويه أو حتى إن نقص عنه قليلاً سنجد عندهم ما يعلو على الأمّة الأخرى من وجه آخر وقد يكون عندهم ما يجبر هذا النقص القليل بزيادة في أمر آخر هي ناقصة عن الأمّة الأولى.

الكلام في هذا الكتاب ليس مغرقاً في التفاصيل، لكنه مفاتيح وأصول يستطيع الناظرون الذين يقارنون بين أدعياء الامتياز الإيماني أن يستعملوها في بحثهم المفصّل.

ماذا عن السلبيات الأخلاقية والتشريعية التي لا يخلو منها أهل ملّة؟ انظر إلى نقد كل أهل إيمان لأهل الإيمان الآخر وستجد في نقدهم ما يكفيك إن استعملته لكي تقلب الحكم على الناقد وترى مثل ما قاله منطبقاً على أمّته. زواج الصغيرات، الختان، الخضوع شبه المطلق

نظرياً والمطلق عملياً للطاغية السياسي، قتل المرتد ومعاقبة أو حتى قتل المخالف في الدين والفكر، الفوقية التعصبية، تقليد العوام للشيوخ، وهلمّ جرّاً من أمور كلها سلبيات. فإن قالوا " لكن هذه ليست سلبيات لكنها إيجابيات بدليل كذا وكذا"، سنقول لهم "عليكم نور، هذا عين ما أردناه، أنتم سترون أقبح ما تأتونه حسناً، وغيركم يرون أحسن ما تأتونه قبيحاً، ولكل منكم أدلة معتبرة في كثير من الأحيان وليس دائماً، لكن المنصف حين ينظر في جميع هذه الأمور سينكر التفوق المطلق لأمّة على أخرى وهو عين المراد".

يزعم أهل كثير من الأديان أنه لولا أخلاق وتشريعات دينهم لما قامت حضارة ولما استقامت أمّة. هذا هراء مطلق، لا نسبي. الأمم قائمة والحضارات مستمرة في شرق الأرض وغربه مع اختلاف الأديان وقبل كل منظومة تشريعات يُدّعى أنها الحل المطلق للبشرية. كأن تجد مسلماً اليوم وما أكثرهم يدعي أنه لولا شريعته لما استقامت حال أمّة، يقول هذا وهو لاجئ عند الأمم الكافرة بشريعته بشكل عام ولو رجع إلى البلاد التي تحكم بشريعته المزعومة لقتلوه وصلبوه أو لعاش فيها مواطناً من الدرجة السابعة بينما هو مع كونه لاجئاً أجنبياً وأقلية دينية وعرقية في تلك البلد "الكافرة" بزعمه يعيش ولا يستطيع رئيس تلك البلاد أن يمسّ شعرة من رأسه بغير حق يتساوى فيه هو ورئيس تلك البلاد لا نظرياً فقط لكن عملياً أيضاً بل لعل الكثير من أهل تلك البلاد يتمنون أن يمسكوا ظل ظل ظل خطأ لرئيس البلاد ضد الأقليات العرقية والدينية حتى يمسحوا بكرامته الأرض، مع أن البلاد التي جاء منها يعيش فيها كل من سوى الطاغية ومن يحبهم الطاغية عيشة أفضلها عيشة الكلاب المرفهة التي يحبّها أربابها وأسوأها يذكّر بشيء من عذابات سقر. كثير من هذا الهراء موجود في الأمم. يزعم الكثير من المسيحيين واليهود أن الغرب الحداثي مثلاً قائم على الأخلاق اليهودية-المسيحية. كلام فارغ. اليهودية كانت في الأرض لثلاثة آلاف سنة ولم تخرج من تحتها حضارة كالحضارة الأمريكية مثلاً، وكذلك المسيحية كانت ولا زالت أصولها في بلاد عربية ومن هناك خرجت وكذلك في شرق وغرب العالم ولا تجد حضارة كالأمريكية ولا مثل البريطانية ولا الألمانية وما أشبه. نحن نعرف اليهودية والمسيحية ومن بلادنا خرجت وأقدم أهلها في بلادنا العربية، لا يوجد عندهم شيء يختلف عن بقية أهل تلك البلاد في التدين والحضارة، فهم إما مثلهم أو أقلّ منهم لكن قطعاً ليس فيهم من حيث دينهم فقط ما يجعل لهم حق ادعاء أنهم جذور الحضارة الأمريكية مثلاً. الأمر أعقد من هذا بكثير، والأصول الربوبية والتنويرية الفلسفية والباطنية الدينية أولى بهذه الدعوى من أصحاب الأديان عموماً. طبعاً، إذا جئت إلى هؤلاء الأدعياء وذكرت لهم مساوئ الحضارة الغربية الحديثة فسيتبرأون منها ويقولون "لا، لا، هذه ليست من عندنا، هذه من

عندهم هم أو من عند عدونا !"، إذن، طريقة هؤلاء الأدعياء الأطفال ملخصها "ما أصابك من حسنة من عندنا وما أصابك من سيئة من نفسك ومن عدونا". نفس اللعبة السخيفة يلعبها كل مَن يرضى عقله بهذا النمط من التفكير والتفسير. ومستواهم هذا بحد ذاته دليل على تخلّفهم وتساويهم في التخلّف إن شئت.

الحاصل، ادعاء الامتياز بالنص أو بالواقع لأي ملّة مطلقاً على أي ملّة أخرى شيء بعيد جداً وصعب جداً والتداخل بين الملل تاريخياً وفي الحاضر، والتشابه والتساوي في بعض الأمور، والتساوي في السلبيات أو التشابه فيها ومن وجوه مختلفة، كل هذا يجعل الاعتماد على الإيجابيات الأخلاقية والتشريعية أمر لا يقوم عليه إيمان قوي.

...

٥-التاريخ المجيد.

الفكرة: تاريخنا مجيد ولولا إيماننا لما كان تاريخنا، ولولا صدق الإيمان لما كان المجد. إذن إيماننا مجيد وأعظم من كل إيمان.

الرد: أوّلاً، إذا كان الوضع الواقعي الذي في الماضي اسمه تاريخ وفي الحاضر اسمه الواقع، يدلّ على قيمة الإيمان، فحسناً، لننظر في المسلمين مثلاً وسنجد أنهم يدعون مجد تاريخهم لكن يعترفون بسوء حال واقعهم، فالواقع سيء وهو مشهود ومعترف به، والماضي مجيد وهي دعوى محلّ نظر فهي مشكوكة بشكل أوّلي، والقاعدة الفقهية المعقولة بذاتها هي أن اليقين لا يزول بالشك، فنحن نرى سوء الواقع بالعيان ويريدون منّا أن نصدّق أن الماضي كان أحسن بدعوى اللسان. قل مثل ذلك في كل أهل الملل التي يدعيها كلها أن عصرهم الذهبي قد ولّى واندثر، طبعاً، حتى لا يفحص أحد ذهبهم المزعوم هذا ويرى أنه مزوّر.

ثانياً، وأيضاً أنا مع المثال الإسلامي، الماضي المجيد الذي تتحدثون عنه لم يكن مجيداً لعموم المسلمين لكن كان مجيداً للطبقة الحاكمة وبعض أتباعها من شيوخ الدين النصابين، وأما عامّة المسلمين فلم يزالوا تحت القهر والعسف والجبابرة منذ القدم، بشهادة كل كتب التاريخ الإسلامي الذي كتبه المسلمون. نعم، كان عامّة المسلمين أفضل في بعض النواحي وفي بعض البلاد من عامّة غيرهم، لنقل أننا نسلّم بذلك، لكن هذا لا يعني شيئاً عن حقيقة الإيمان وعلاقته بذلك، خصوصاً ونحن نرى سوء حال عامّتهم في ما سوى ذلك وبشكل عام، وإن كانوا أفضل

من غيرهم في ذلك الزمان من وجوه كثيرة لأن العصور كان مظلمة بشكل عام ويشيع فيها الظلم كالملح في البحر، فإن هذا لا يفيدنا اليوم شيئاً ونحن أبناء اليوم لا أبناء الماضي، والعامّة اليوم في بلاد المسلمين وغيرهم أرقى وأحسن وأثرى وأنظف من عامّة المسلمين في أي عصر مضى.

ثالثاً، الذي يريد ذكر مجد تاريخه سنذكر له سوء تاريخه، وذلك أمر سهل جداً ومعلوم للكافّة فلا نعيده.

رابعاً، ما هو مقياس "المجد" تحديداً؟ ضع أي مقياس وبرره، فإن تبرر، نستطيع أن نأتي بمثله أو بأحسن منه لنُظهر أنه موجود في أمّة أخرى أو موجود ما هو خير منه أو ما يقاربه، أو لإثبات أنه لا يوجد اليوم بالتالي تصبح التواريخ دعوى مجرّدة لأن المسلمين اليوم معهم نفس الإيمان الذي كان بالأمس، فما بالهم اليوم على ما هم عليه والاعتقاد الاعتقاد والتشريع التشريع. إن قلت وادعيت الدعوى الفارغة "لأننا اليوم لا نعمل بالإسلام" أو "لا نعتقد بالإسلام"، فلتكن مكفّراً للأمّة إذن. وما الذي يعمل ويعتقد به المسلمون اليوم إن لم يكن الإسلام إذن؟ هم لا يعملون بالجاهلية قطعاً، لأن الجاهلية بشكل عام كان فيها حرية سياسية (إذ لم يكن للعرب ملوك عموماً) وجنسية وأدبية بشكل عام لا نجدها اليوم في بلاد المسلمين، فضلاً عن كثير من أخلاق الشرف والمروءة. ووهم لا يعملون بالقيم التنويرية الحديثة، وهذا ظاهر في العلم وفي السياسة. وهم لا يعملون بالفلسفات الشخصية، إذ هم أشبه بالقطيع أو القطعان التي تجتمع على أشياء مشتركة وليسوا من أهل الفردية الفلسفية ولا تزال النزعة الاجتماعية شديدة فيهم. فماذا إذن؟ يعملون بدين الشيطان؟ قولوا بوضوح ما عندكم. من السهل ادعاء المجد في شيء مضى والكلام عنه مجمل ومختصر وفي مستوى الخيال فقط. لكن أنتم تدعون أن الواقع (الماضي، أي الواقع الذي مضى وانعدم وبطل) يدلّ على حقيقة الإيمان، حسناً، فالواقع (الحاضر، المشهود) يدلّ على حقيقة الإيمان. فإن كان الماضي المجيد يدلّ على إيمان حقيقي، فالحاضر البئيس يدلّ على كفر حقيقي. لا تكونوا من المطففين ولا من الذين لا يزنون بالقسطاس المستقيم. إن كان الواقع يكشف قيمة الإيمان، فقولوا ذلك الآن، حتى نكشف إيمانكم وإيمان كل أمّة بنفس الطريقة. ثم حددوا لنا ما معيار المجد بالضبط؟ الثراء؟ الشحاذ الأمريكي يملك من الثروة ما يوازي ما تملكه عائلة في بعض بلاد المسلمين اليوم، ولا أقول في الماضي السحيق حين كان الفرد المتوسط وفي عهد النبي لا يكاد يملك ثوبين ويتناوب العشرة على إزار واحد. أم يا ترى المعيار هو العلم؟ العلم بكل وجه الطبيعي

والديني والفلسفي الذي يظهر في أمريكا يومياً يوازي ما أنتجه المسلمون في ألف سنة بل يفضل عليه إن جمعت الكل، فضلاً عن باقي بلاد الغرب الآخذ بقيم التنوير الحديثة بشكل عام. أم أن المعيار هو العدل السياسي؟ وتروون لنا نوم عمر تحت شجرة وبقية هذا الحكايات؟ لننظر في عدل يوم في المحاكم الأمريكية التي يرفع فيها مواطن لا عشيرة له ولا مال دعوى على حكومة البلد نفسها وتنتصر له المحكمة. بل أربعة من المتهمين بالإرهاب من الإسلاميين بعد الحادي عشر من سبتمبر قاضوا رئيس الدولة نفسه والمحكمة الفيدرالية العليا حكمت للأربعة ضد حكومة بلدهم. مقابل كل قصة فريدة شاذة من تاريخ المسلمين نستطيع أن نأتي بواقع حاضر وقريب وسبعمائة قصة موثقة بالصوت والصورة بل وأشخاصها أحياء فيها عدل أفضل وأعمق وأسرع وأكرم من تلك الحكايات التي يمكن جمعها في كراسة وصدّعوا رؤوس الأمّة. ومقابل كل ظلم يدعون وجوده اليوم ولو كان حقاً نستطيع أن نأتي بعشرات المظالم الأسوأ والأقبح عبر تاريخ المسلمين. وقل مثل ذلك طبعاً في بقية الأديان، ولا أريد أن أكرر هذه العبارة كثيراً فقد بيّنت سبب اختياري للأمثلة الإسلامية. اختر المعيار الذي تشاء، واضرب المثال الذي تشتهيه من تاريخ المسلمين بل وحاضره (لا دخيلك، ابعد عن حاضرهم حتى لا يسودّ وجهك)، وسأضرب لك أمثلة من أمريكا فقط تغلب كل ما ستأتي به إن شاء الله وبسهولة ويسر أيضاً وبوضوح.

الخلاصة، التاريخ الديني إما لا يميّز ملّة على ملّة، أو هو سواد الوجه لكل الملل على السواء. فابتعد عن قضية التاريخ المجيد هذه ولا تبني إيمانك على دعاوى خيالية بل ولا دعاوى لها ما يناقضها بسهولة من الماضي ومن الحاضر.

...

٦- الاضطهاد.

الفكرة: لولا أن روحنا وعقولنا شهدت حقيقة ما نؤمن به وهذه الحقيقة حرستنا لما صبرنا على الاضطهاد، فالإنسان لا يستطيع أن يصبر على معدوم.

الرد: الاضطهاد والصبر عليه يدلّ على اقتناع الإنسان بشيء أو عدم وجدانه مخرجاً يرضيه غير طريق سلكه يؤدي إلى تعرّضه لعدوان أو غضب إنسان آخر أقوى منه، هذا يدلّ عليه الاضطهاد، لكن لا يدلّ الصبر على الاضطهاد على صحّة إيمان أحد، فمن المعلوم أن كل

العقائد الدينية والسياسية قد تعرّض أصحابها للاضطهاد في فترة ما أو لا يزالون إلى اليوم يتعرّضون لنوع ما من الاضطهاد أياً كانت درجته.

من أمثلة ذلك على المستوى الديني، المسلم يحتجّ بصبر بلال على صحّة عقيدة التوحيد والمسيحي يحتج بصبر سلفه على رميهم للأسود على صحة عقيدة التثليث.

من أمثلة ذلك على المستوى المذهبي، السنّي يحتجّ بتعرّض علمائه للاضطهاد أيام الفاطميين على صحة عقيدته، والشيعي يحتج بتعرّض علمائه للاضطهاد أيام الأمويين والعباسيين والعثمانيين على صحة عقيدته.

من أمثلة ذلك على المستوى السياسي، الشيوعي يحتجّ بتعرّضه للاضطهاد في أمريكا أيام الحرب العالمية الأولى والرعب الأحمر، والرأسمالي يحتجّ بتعرّضه للاضطهاد في الصين وروسيا في نفس الفترة.

الأمثلة كثيرة جداً ونستطيع أن نأتي بتفاصيل من الماضي والحاضر على تعرّض كل أصحاب عقيدة جديدة أياً كان مجالها للأذية من أجل عقيدتهم وصبرهم على ذلك. ولولا صبر الكل لما وجدنا كل هذه التعددية في الأديان والمذاهب والمدارس عبر القرون. وحدّث ولا حرج عن صبر اليهود على الاضطهاد عبر القرون، ومع ذلك لا نرى الأمم كلها تهوّدت.

ثم الإنسان يستطيع الصبر على معدوم في الواقع الخارجي إذا كان مقتنعاً بأنه موجود في ذلك الواقع عبر شدّة اقتناعه به في واقعه الذهني. الذهن يوازي الخارج، وواقعية ما في الذهن قد توازي قوّة وواقعية ما في الخارج، ومن هنا قوّة الأحلام أيضاً، وهلوسات متعاطي المخدرات. فالصبر على شيء لا يدلّ بالضرورة على صدقه في الخارج وإن كان يدلّ على قوّة ثبوته في ذهن الصبّار.

الحاصل: تعرّضك لأذى من الناس يدلّ على اختلافك معهم، وصبرك يدلّ على شدّة قناعتك، لكن موضوعياً لا يجعل هذا لك أية أفضلية مطلقة على بقية الصابرين. فالصبر دائرة تجمع بدون تمييز.

...

٧-الاستشهاد.

الاضطهاد تعذيب والاستشهاد قتل. ما ذكرناه في الفقرة السابقة ينطبق حرفياً هنا فلا نعيد بأكثر من أن نقول: لكل مذهب شهداء.

...

٨-حفظ الدين عبر الزمن.

الفكرة: لولا أن رب العالم هو الذي أنزل ديننا، ولولا أن لديننا واقعية في العالم الأعلى الغيبي الثابت المتجاوز للزمن، لما أمكن حفظ ديننا عبر الزمن إذ لأبطله رب العالم أو لفني بسبب انفصاله عن المثل العليا الثابتة في الملكوت.

الرد: في ما مضى كما فيما يأتي، الضعف الجوهري لكل هذه الحجج ينبع من كون الإيمانات المختلفة المتعارضة كلها تستطيع الاعتماد على نفس الحجج. فالحجّة ضعيفة لأنها يمكن أن تدلّ على الشيء ونقيضه. كذلك الحال هنا. أديان كثيرة ومذاهب كثيرة محفوظة عبر الزمن، وهي موجودة إلى اليوم على اختلافها وتناقضها وتكفير أهلها لبعضهم البعض.

من النظر في العالم نستطيع أن نرى أن رب العالم ترك الناس للابتلاء وأعطاهم الاختيار الحر، بدليل أننا نجد الناس يختارون ويخرجون من شيء ويدخلون في غيره ويحتارون ويتجادلون وينظرون ويحتجّون. بالتالي، مجرّد وجود دين لا يدلّ على صدقه عند رب العالم، وهذا يعرفه كل أهل الأديان ومذاهبها بداهة. بل قد نجد عند الكثير منهم أن انتشار دين معين أو مذهب باطل إنما يدلّ على كونه من عند الشيطان لا من عند الله، كالذين اتهموا سرعة الفتوحات الإسلامية من المسيحيين بأنها دليل على أن نبي الإسلام هو المسيح الدجال وكان يسجد للشيطان الذي-حسب كتبهم المقدسة-يمكن أن يعطي ممالك الأرض كلها لمن يسجد له. لكن في المقابل ستجد نفس هؤلاء المسيحيين يحتجّون على إخوانهم في المسيحية من أهل المذاهب الأخرى بحجّة الاستمرار عبر الزمن والحفظ في الأرض على حقانية مذهبهم هم وحفظ الله لهم. القضية فوضى كما ترى، والحجّة تُستَعمَل في الشيء ونقيضه بالهوى.

أما قضية كون الدين حقاً بحجّة أن الشيء لولا وجود مثل له في الملكوت لما استطاع ظلّه في الدنيا أن يستمر، فمن جهة نقول: أنتم تعترفون بأن دينكم لم يكن موجوداً بصورته التي

بأيديكم في فترة ما قبل ظهور رأس دينكم ومذهبهم، إذن كان باطلاً في الماضي، ثم نحن لا ندري إن كان سيبطل في المستقبل فنحن لم نشهد كل المستقبل بعد حتى نرى هل سيصمد إلى الأبد، ثم توجد أديان ومذاهب أخرى قديمة أيضاً لا تزال قائمة وأنتم تكفّرون أهلها ولا تبالون بهم، كل هذا يُدخل شكوك لا حلّ لها عليكم. ثم كم سنة لابد من أن يستمر الدين حتى نقول أن له "مثل في الملكوت"؟ مائة؟ فماذا عن أهل الدين الذين كانوا قبل تمام هذه المائة، كيف عرفوا وجود المثل الملكوتي لدينهم حينها؟ وقبل ذلك، من أين جئتم بهذه المائة ولماذا لا تكون ألفاً أو مائة ألف سنة حتى نجزم بثبوت المثل الملكوتي له؟ ثم ماذا عن التغيّر المستمر لتفاصيل الدين، هل هي تجليات وزوايا جديدة للمثل الملكوتي له أم هي ابتداع من العدم أم ماذا؟ الحجّة كما ترى مدخولة من كل وجه بشكل عام، وإن أمكن الإجابة عن بعض ذلك فلا يمكن قطعاً الإجابة عن الكل. نعم، اللهم إلا أن يقولوا "ديننا له مثل في الملكوت الجميل أي الجنّة والسماء، لكن دين خصومنا له أيضاً مثل في الملكوت لكن القبيح أي الجحيم وجهنم، لذلك يستمر دينهم ويستمر ديننا"، فإن قالوا ذلك، فالرد عليهم من نفس كلامهم، وهو أن نسأل: وكيف سنميّز أن دينك مثله في الفردوس بينما دين خصمك حسب دعواك مثله في الجحيم وهو يقول فيك مثل ما تقول فيه؟ ولن تجد جواباً فاصلاً.

حفظ الدين أو المذهب عبر الزمن قد يرجع إلى عوامل مثل المصلحة أو الدولة الداعمة أو شدّة قناعة وحركية حملة المذهب. بل لا يدلّ على حتى أعلمية حملة مذهب على حملة مذهب آخر. من أمثلة ذلك في تاريخنا الإسلامي كون فقيهاً مجتهداً أعلم من فقيه مجتهد آخر لكن اندرس مذهب الأول وبقي مذهب الثاني لأن "أصحاب" الفقيه الأول لم يقوموا بحفظه ونشره كما فعل أصحاب الفقيه الثاني، وهي كلمة مشهورة عن الشافعي قالها في الليث بن سعد "الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به".

ثم ماذا عن الكلام الذي اندرس وزال ولم يحفظ، هل هذا يدلّ على بطلانه؟ إن كان حفظ الدين يدلّ على حقانيته، فزوال الدين يدلّ على بطلانه. وهذا لا يستطيع أن يقول به أحد من أهل الأديان المعروفة بالإبراهيمية مثلاً، ولعلّ نفس الأمر يقال في البقية، لأنهم يقولون بوجود رسل وأنبياء كثر جداً وهؤلاء بالضرورة تكلّموا، فأين ذهب كلامهم؟ قد زال. في الإسلام مثلاً يُقال بأنه يوجد عشرات الآلاف من الأنبياء ومئات من الرسل، لكن لم يزل فقط الكتب والأفعال التي قاموا بها أي حكايتها بل حتى أسماءهم لم تعد محفوظة مشهورة. والدين كلام يُنقَل وأفعال تُقلَّد، من قبيل "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" و "صلّوا كما رأيتموني أصلّي" مع حفظ اسم

رسول الدين. كلا، لا ينفع أن تقول "لكن روح ما جاء به أولئك الأنبياء والرسل الكثر قد بقيت واستمرت وانحفظت فيما جاء بعدهم خصوصاً رسول ديننا"، لأن حجّة بطلان ملكوتية الشيء الذي يزول من الأرض بذاته يكفي لإثباتها هذا القدر من الاعتراف بالزوال، ثم قد يقال "وما أدرانا أن نبيك قد حفظ كل ما مضى مما جاء به كل الأنبياء والرسل فهي دعوى منك ولابد للفصل فيها من رؤية ما جاءوا به والمقارنة ثم الحكم ببيّنة، وإلا فإننا نجد أهل دين غيرك تكفّره ويكفّرك يحكم بأن رسولك قد حرّف وابتدع وأنت تحكم بأن ما بيده هو مما ورثه عن أبائه أيضاً تحريف وابتداع، وهي دعاوى متعارضة كما ترى".

إذا كان حفظ الدين عبر الزمن يدلّ على حقانية الدين، فالدين الأقدم يصبح هو الأحق لأنه الأكثر اشتمالاً على معنى الحفظ عبر الزمن. بالتالي، اليهودية تصبح أحق من المسيحية، والمسيحية واليهودية والبودية والهندوسية أحق من الإسلام، والأديان الوثنية أحق من اليهودية وهلمّ جرّاً. ولا أحد يعترف بمثل هذه الحجّة مع أنها معقولة بناء على أصل الاحتجاج بالحفظ عبر الزمن.

ثم تاريخ كل دين ومذهب لا يمكن معرفته أصلاً بيقين تام الآن وبشهود لأنها دعاوى مؤرخي عن الماضي ن لا شاهد عليها من الحقيقة القائمة اليوم، فالظن داخل من هذا الوجه مهما كان ظناً قوياً إلا أنه دون اليقين بالتأكيد. فإذا أضفت إلى ذلك كون كل دين وباعتراف الكل قد تعرّض لشيء من التغيير ولو في بعض تفاصيله ولا يوجد أحد يملك الآن الصورة الأولى لأي دين ومن هنا النزاع بين أهل كل دين وتفرّق مذاهبهم في تفسير عقائد وشرائع مؤسس دينهم، صار الحكم بالعمر الصحيح لكل أمر في كل دين أمراً مشكوكاً بحد ذاته.

...

٩-الزهد.

الفكرة: الإنسان يريد اللذة، واللذة إما جسمانية وإما غير جسمانية، والجسمانية إما بدنية وإما مالية، فلمّا رأينا إنساناً يزهد ويرضى بالقليل الخشن فقط من الأمور البدنية (كالطعام والمسكن واللباس، والامتناع عن الجماع بالكلية أو الأخذ بالقليل جداً منه بقصد الولد وليس بقصد التلذذ إما مطلقاً وإما عَرضاً)، وكذلك من الأمور المالية (إما برفض تملّك أي شيء مطلقاً أو تملّك القليل الضروري بقدر يجعله في صفّ الفقراء والمساكين في المجتمع أو قريب جداً منهم)، وهو قادر على تحصيل هذين الأمرين، أي اللذات البدنية والمالية، عرفنا أن له

طريق إلى لذّة أعلى من اللذة الجسمانية، وهي اللذة الروحانية. أو نقول بأنه لولا معرفته بوجود ما هو أعلى من الجسم لما ترك الجسم، إذ الإنسان لا يترك شيئاً إلا لشيء هو أولى عنده منه، فلمّا ترك الجسماني عرفنا أنه صادق في اتصاله بالروحاني. والاتصال بالروحاني والتلذذ به دليل على قبوله من العالَم الروحي وسكّانه، وهذا القبول ما كان ليكون إلا لأن إيمان الشخص صحيح وحقيقي ومطابق للحقيقة الروحانية التي هي الحقيقة الأبدية. بالتالي، الزهد يدلّ على صدق الإيمان، من وجوه اللذة والاتصال والقَبول الروحاني.

الرد: بمجرّد رسم فكرة الزهد نستطيع أن نرى الأساس الذي تدور عليه ومدى ضعف الاحتجاج به. فمن جهة، الزهاد بجمع المعاني موجودين في كل الملل والنحل، أو لا أقلّ الأمر مشترك اشتراكاً يمنع من الاعتقاد بوجوده في ملّة دون أخرى. بل حتى ما بين الفلاسفة بل وأساتذة جامعيين لا يدّعون الاتصال بالمطلق والغيب نجد مثل ذلك الزهد أحياناً درجات متفاوتة، بل حتى ما بين أناس مهووسين بصنعة معينة أو فن معين قد نجد مثل ذلك. الإنسان قد يميل لشغله العقلي والعاطفي إلى حد يجذبه عن الاشتغال بجانبه البدني والمالي.

ترك الجسماني لا يدلّ على وجود عالَم روحاني بالضرورة، لكن يدلّ على وجود وعي في الإنسان قد يشتغل بعقله وقد يشتغل ببدنه وخارجه، وقد عرفنا بالتجربة أن الاشتغال العقلي أكثر جذباً للإنسان واستهلاكاً لطاقته ويجعله يشعر بالتسامي، بغض النظر عن معرفة أسباب ذلك لكن الظاهرة معروفة. فالطعام والجماع واللباس وتملّك الأموال ونحو ذلك حتى على المستوى الطبيعي في التفكير ليسوا أهمّ ما يمكن أن يتلذذ به الإنسان.

إن افترضنا أن ترك الجسماني يدل على الاتصال بالروحاني والقبول منه، حسناً، فماذا عن الزاهدين من المسلمين، فكل متصوفتهم وغير متصوفهم أيضاً كثير منهم لهم باع طويل في الزهد، لا يزال هذا الأمر قائماً إلى اليوم ونحن لا نتحدث فقط عن الشخصيات التاريخية المعروفة بذلك، فهل هؤلاء حجّة على المسيحي الذي عنده زهاده أيضاً ويدّعي أن زهدهم دليل روحانيتهم وروحانيتهم دليل صدق إيمانهم؟ والعكس صحيح. إن قال المسلم بأن نبيّه كان يشدّ الجوع على بطنه، سيقول البودي بأن شيخه كان يأكل مرّة كل عشرين يوماً أو لا أدري كم، ثم سيأتي الهندوسي أو الجاني ويرمي المسلم والمسيحي بأنهم شهوانيين لأنهم يأكلون اللحم بل ومتوحشين أيضاً بسبب ذلك. ثم يمكن الاحتجاج على كل أهل دين بوجود أناس فيهم لم يكونوا من الزهاد ومع ذلك يقبلونهم كروحانيين وشيوخ معرفة إلهية فيهم، كبابا الكاثوليك الذي يعيش

في قصر ويلبس فخامة وله بطن تجعله ينافس الملوك "الماديين الدنيويين"، أو صلاة اليهود والمسيحين بصلوات داويد-المزامير-بالرغم من أنه كان أيضاً له شهوته واتصاله بالنساء حتى إنه خان صاحبه وعرّضه للقتل من أجل نيل امرأته التي لم يصبر عليها كما يقولون، وإبراهام أيضاً في كتبهم كانت له زوجة وجواري وعبيد وأملاك ومع ذك له شأن عظيم في الإيمان والاتصال بالله عندهم، وقس على ذلك.

بما أنه يوجد زهاد بدرجات مختلفة في كل الأديان، ويوجد غير زهاد تقبل إيمانهم أهل الأديان، المختلفة المتعارضة، فالنتيجة العقلانية الضرورية هي أن الزهد لا يدلّنا على صحة الإيمان واقعياً. أقصى ما يمكن أن يدلّنا عليه هو أن الزاهد نفسه مقتنع بحسن سلوكه وأهمّية عمله الديني وصدق عقيدته ومطابقتها للواقع، بعبارة أخرى، الزهد قد يدلّ على صدق المؤمن وليس على صدق الإيمان.

قد نجد الزهد عند الماكرين، الذين يُظهرون زهداً للناس وهم في السرّ يفعلون الأفاعيل. قد نجد الزهد أيضاً عند السياسيين من المتدينين، الذين يريدون خداع الجماهير بمظهر الزهد لإظهار الصدق وهم في الواقع يشتهون السلطة أكثر مما يشتهون اللقمة والمضاجعة، والسلطة لها سكرة ولذّة عظيمة في النفس الإنسانية كما هو معلوم عند علماء النفس من الإلهيين والطبيعيين حتى قال بعض علماء النفس الإلهيين أن آخر ما يخرج من رأس الولي هو حبّ الرئاسة، وأما الطبيعيين فقد جعلوا تحقيق الذات في المجتمع وحصول القبول من الآخرين من أهمّ مفاتيح تفسير الشخصية وسلوكها ورغباتها ورهباتها. والسلطة أمر "دنيوي"، إذ تتعلّق بالناس في الدنيا، ولها نوع من اللذة تجدها النفس الآن لعلها تفوق لذّة المضاجعة آلاف المرّات حتى إن بعض الناس ومن غير المتدينين رسمياً قد يحرّم على نفسه الزواج اشتغالاً بالسياسة (مثال في المتدينيين: ابن تومرت المدّعي بأنه المهدي، ومثال في العلمانيين: مصطفى كمال الطاغية التركي). فنحن لا ندري على التحقيق ما يفعله الإنسان في السرّ، لذلك لا يمكن حتى الجزم بأنه زاهد بأي مقياس، اللهم إلا أن نقول بأنه يلبس الرثّ في العلن، لكن التفاصيل السرّية فما أدرانا بها، لعله يأكل وينكح في السرّ، فضلاً عن شهوة السلطة التي يطلبها بواسطة إظهار زهده في العلن. من الأمثلة الطريفة التي سمعتها في هذا الباب، غاندي، الذي يقال بأن التكلفة المالية لإبقائه فقيراً كانت عالية جداً!

بالنسبة للمسلمين تحديداً، لا يمكن أن يكون الزهد علامة صدق الإيمان، من جهات: الأولى، كل الفرق والطوائف المتناحرة لها زهادها، وهو أمر لا ينكره أدنى مطلع على علم الرجال وقصصهم. الثانية، النبي نفسه كان يحبّ الحلواء ويأكل العنب وحُبب إليه النساء وكانت له نساء كثر وقد جامع كثيراً حتى قالوا بأنه أوتي قوة عشرات الرجال أي قوة المجامعة وكان يحبّ البيت الفسيح، نعم قد يكون اضُطرّ إلى الفقر في حالات لكنه كان يحب شرب الماء العذب حتى إنهم كانوا يأتونه بالماء العذب خصيصاً من أماكن خاصة أحياناً، وهكذا كانت له اختيارات في النظافة والأناقة في الملبس والمظهر والمسكن، ويحب العطر والروائح الطيبة، باختصار كل لذات المادة المهمة كان للنبي حظ منها، ويكفينا أمر الجماع الذي هو أعلى شهوة ممكنة في الطبيعة وأمر المجامعة مشهور في النبي وأهل بيته وأصحابه الكبار، حتى إنه لا يكاد يوجد فيهم مَن لم تكن له أكثر من زوجة وما الله أدرى به من الجواري. الجهة الثالثة، ليس في القرءان ربط جوهري ما بين الزهد وصدق الإيمان، بل قد أخبر القرءان عن وجود أناس لهم "رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم" لأنهم أرادوا "ابتغاء مرضاة الله"، فقد يبتدع المبتدع ويختلق المختلق شيئاً بنية صالحة وقصد حسن، بل وفي آية أخرى أخبرنا أن بعض الرهبان "يأكلون أموال الناس بالباطل"، بالتالي قد يقترن الزهد وصورة الزهد العلنية مع البدعة والتحريف والكذب على الله وأكل الحرام، إذن، الرهبانية لا تدلّ على صحة العقيدة. على ذلك، لا حجّة في الزهد لصدق الإيمان داخل الإسلام.

الخلاصة : لا داخل الإسلام ولا خارج الإسلام ولا ما بين الأديان، لا يوجد حجّة أو لا أقلّ لا توجد حجّة قوية للربط ما بين الزهد وصدق الإيمان.

...-...

١٠-الحجج العقلية والمنطقية.

الفكرة: بما أن ديننا ومذهبنا مؤيد بالحجج العقلية والمنطقية، والعقل شاهد على الحق لأنه يدرك الموجودات وهو نعمة إلهية لنا لنعرف بها الحقائق، فالعقل يؤيد ديننا بالتالي ديننا حق.

الرد: بدءاً، لا يوجد دين نعرفه حسب النمط الشائع للأديان في الأمم إلا وستجد عند أهله عموماً نزعة إلى تعظيم العقل ونزعة إلى تحقير العقل. لا تناقض بينهما في نفوس أكثر المتدينين. العقل عندهم، حين نصل إلى لباب موقفهم، هو مجرّد وسيلة لما يعتقدونه ويرتكبونه، مثل الحذاء شيء يلبسونه حين يحتاجونه ويخلعونه حين لا يحتاجونه. لذلك في كل دين ستجد

عموماً أمور "ما وراء العقل" أو "ما فوق العقل" أو "أكبر من العقل" أو "العقل عاجز عن إدراكها مع كونه لا ينفيها". العقل له قيمة إلى حدّ ما فقط، بعدها يتم تجريمه واعتباره عدواً وشيطاناً وآلة خبيثة ومصدر إزعاج وتشغيب وسبباً لمعاقبة مستعمله بالطرد أو بالحبس أو بالنفي أو حتى بالقتل وكم لذلك من أمثلة في الماضي والحاضر. الأديان عموماً لا تطلب المعقولية لكنها تطلب رسوخ العقيدة، ورسوخ العقيدة مشروط بنوع من التعقل بالضرورة أو حتى شبهة التعقل وإلا فلا يمكن للناس أن يقبلوا الشيء إن كان غير معقول مطلقاً من كل وجه، لكن لابد أيضاً من نوع من اللاتعقل وإغلاق أو إسكات العقل حتى ترسخ العقيدة المطلوب تعميمها. نعم، إذا جالست أهل أي دين ستجدهم عموماً لا يقرّون بأن ما في دينهم يخالف العقل أو أن العقل يدلّ على ما يناقض ما يعتقدونه ويرتكبونه، قليل حسب اطلاعي يجأرون بإنكار العقل كفاحاً.

الأمر الثاني الذي يردّ فكرة تأييد العقل هذه، هي أن ننظر في "عقلاء" كل دين وسنجدهم كثر، لن تجد ديناً عموماً إلا وفيه عقلاء من مختلف الطبقات، أقصد ستجد عقلاء من الروحانيين ومن الفلاسفة والمفكرين والمثقفين ومن علماء الطبيعة والاجتماع والنفس بألوانهم المختلفة، وستجد ذلك في عموم الأديان وستجدهم خبراء عظماء في مجالاتهم ومع ذلك قد تجدهم أهل تدين شديد واعتقاد بدرجة ما بدينهم ومذهبهم. فلو كان العقل هو الشاهد الصادق لأي دين، فما بالنا نرى كل هؤلاء وأديانهم ومذاهبهم مختلفة. إلا أن تقول بأن عقلاء دينك فقط هم الذين أعملوا عقولهم، وعقلاء باقي الأديان والمذاهب لم يُعملوا عقولهم، وحينها نكون قد دخلنا ساحة الهوى والتعصّب بكل وقاحة.

الأمر الثالث، يكفي أن ننظر في تراث الأديان الكبرى وسنرى عقلاء وفلاسفة من طبقة عالية قد نظروا "بعقولهم" في دينهم وفسّروها منطقياً وقد استقامت لهم، سنجد مثلاً موسى بن ميمون في اليهود وَتوما الأكويني في الكاثوليك وَالغزالي وابن سينا وصدر المتألهين الشيرازي في الإسلام وهلمّ جرّاً. ثم سنجد عقلاء أيضاً وفلاسفة وقد خرجوا من كل هذه الأديان أو أخذوا بشيء قليل منها بالقدر الذي يناسب أمراً ما يطلبونه كالانتماء أو العاطفة أو شيء من الرابطة الغيبية بالإله. العقل الذي يشهد لكل شيء لا يشهد بشيء.

ثم إن العقل يفكّر منطقياً بناء على المعطيات الوجودية التي يأخذها أو يفترض وجودها. فمنهجية التفكير المنطقية تنفع الكل بشرط افتراض معطيات معينة. العقل لا يحكم بشيء إلا

بعد تصور معطيات معينة. والأديان تفترض معطيات مختلفة، بالتالي يستطيع كل من يريد التفكير فيها منطقياً الاعتماد على تفكيره بشرط التقيّد بتلك المعطيات.

يكفي أن نضرب مثلاً بأعلى القضايا الميتافيزيقية لنرى كيف يختلف الأديان فيها، وهي القضايا المفترض أن تكون وجودية حقيقية لا يوجد أعلى منها. وهي قضية الألوهية. ستجد الهندوس يقولون مرّة بإله واحد ومرّة بآلهة كثيرة، والبوديين لا يقولون بإله شخصي، اليهود يقولون بإله واحد لكن يختلفون ما بين التجسيم والتجريد، المسيحيون لهم مقالات بعضها إله واحد وبعضها واحد في ثلاثة وبعضها غير ذلك ولهم اختلافات في قضية ألوهية المسيح لا يحصيها إلا الله والراسخون في العلم والمتفرغون ذوي الأذهان الثاقبة التي لا تملّ من الكلام في الهواء، والمسلمون يقولون بإله واحد لكنهم يختلفون فمنهم مَن يقول بالوحدة العددية ومنهم من يقول بالوحدة غير العددية ومنهم مَن يقول بالتجسيم ومنهم مَن يقول بوحدة الوجود المطلقة ثم هم ما بين التجسيم المحض والوحدة المطلقة طوائف كثيرة. نعم تستطيع أن تقول أن كل الأديان عموماً تؤمن بشيء من الألوهية أو الوجود المطلق الماوراء أو المافوق الطبيعة الفانية، لكن بعد هذا المعطى الاختلافات كثيرة جداً. إذا كان هذا هو الحال في الألوهية التي هي ركن الأركان في الرؤية الدينية الوجودية، فتستطيع تخيّل كمية وكيفية الاختلافات بعد ذلك في تفاصيل الأمور. إذا كانت الأدلة العقلية والمنطقية لم تستطع أن تجمع الناس على هذه الحقيقة، بالرغم من كل قوتها المفترضة، فعن أي أدلة عقلية نتحدّث إذن. إذا كان "عقلاء" الأمم لم يستطيعوا الاجتماع بأدلتهم العقلية على قضية الألوهية، فما الذي سيجمعهم بعدها؟ أحلّية أكل الخنزير أو جواز الإجهاض أو الصلوات الخمس للمسلمين (والتي "عقلاء" المسلمين اليوم يبحثون ويختلفون حتى في هذه، وأدلّتهم عقلية بل ونقلية أيضاً!).

موسى بن ميمون كتب دلالة الحائرين في الشرح المنطقي للعقيدة اليهودية، توما الأكويني كتب الخلاصة العقائدية في الشرح المنطقي (الدقيق جداً بالمناسبة) للعقيدة المسيحية الكاثوليكية، فلاسفة وعلماء كلام كثر من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والشيعة بأصنافهم كتبوا الكثير جداً في الشرح المنطقي للعقيدة الإسلامية، ولعلنا إذا بحثنا في البوديين والهندوس وغيرهم سنجد عندهم بدرجة أو بأخرى شروح منطقية عقلية أيضاً لعقائدهم أو لا أقلّ سيعتبرون أن ما يقومون به ويقولونه عين العقل أو لا يناقض العقل، فإذا كان كل هؤلاء دققوا عقلياً واختلفوا وكلهم يظنّ أنه أصاب بكبد العقل كبد الحقيقة فمن الواضح أن الاستعلاء بعدد الأدلة العقلية التي بيدك ليس كافياً لاعتبار صدق مذهبك.

ثم إذا كانت شهادة العقل للدين توجب التصديق به، فشهادة العقل ضد الدين توجب التكذيب به، وشهادة العقل المترددة للدين أو عليه توجب الشك فيه. هذا ما يقتضيه الاستشهاد بالعقل لصدق الدين. أرونا الآن مَن من أهل الأديان يستطيع الالتزام حقاً بهذا المعيار بكل ما يلزم عنه. مَن من أهل الأديان يستطيع تحمّل ثقل العقلانية هذا ولا يسقط قاربه إلى قاع محيط البطلان. تعالوا نضرب أمثلة إسلامية لأنها التي تخصّنا، لكن تستطيع قياس ذلك على جميع الأديان وستجد مثلها أو أشدّ منها.

في العقيدة الإلهية، يقولون الإله غير العالَم والخالق غير المخلوق: كيف؟ ما هو الفاصل ما بين الإله وخلقه؟ إن قلنا بعدم وجود فاصل فالإله متحد بخلقه، فهل يوجد شيء خارجه خلق فيه الخلق فهذا يقتضي أن ما هو خارجه مستقل عنه فتبطل إلهيته المطلقة الواحدة، وإن قلنا بأن الخلق داخله فهذا يقتضي تجزء الإله إلى أجزاء بحيث يكون في بعضها الخلق وفي بعضها لا يوجد خلق، وإن قلنا أن العالَم ليس خارج الإله وليس داخله فقد قلنا أمراً غير معقول. وإن قلنا يوجد فاصل ما بين الإله وخلقه، فما هو هذا الفاصل؟ إن قلنا هو الخالق رجع الكلام، وإن قلنا هو مخلوق رجع السؤال، وإن قلنا نصفه خالق ونصفه غير مخلوق فنرجع ونسأل عن ما هو الفاصل بين نصفه الأول ونصفه الآخر حتى يتميّز فيه الخالق عن المخلوق.

يقولون في العقيدة الإلهية أن الإله خلق العالَم من عدم، ويقولون بأنه لم يكن هناك زمان قبل خلق العالم لأن الزمان مخلوق في العالَم، لكنهم يقولون بأن الخالق خلق حين أراد ولم يكن مريداً في الأزل إذ لو أراد الخلق في الأزل لكن الخلق موجوداً أزلياً وهم يقولون بالخلق الحادث لا القديم الأزلي، بالتالي الإله أحدث الخلق بإرادته، فالسؤال: ما الذي حرّك إرادته؟ إن كانت دائماً متحركة باتجاه الخلق فالخلق أزلي، وإن حدثت الإرادة فيه بعد عدمها فيه فما الذي أحدثها فيه؟ إن قلنا هو الذي أحدثها في نفسه رجع السؤال، وإن قلنا أحدثها غيره فيه فمَن هذا الغير والمفروض أنه لم يكن معه شيء قبل أن يخلق الخلق.

في الشريعة، مرّة يقولون يوجد مقصد لكل حكم، ومرّة يقولون الأحكام تعبدية غير معقولة المعنى. فإذا جادلتهم في جدوى أو معقولية أو منفعة الحكم اخترعوا فائدة يسمونها "حكمة"، فإذا وصلوا إلى مضيق قالوا "هذا أمر تعبدي لا نعقل معناه". فمرّة يعملون العقل ومرّة يُسكتون العقل، والفارق بين الحالتين هو مدى اقتناعهم أو اقتناع مَن يجادلهم بما يقولونه، فإذا اقتنع سكتوا وإذا لم يقتنع أسكتوه بحجّة التعبّد بالمعنى.

مرّة يقولون وجود النبي ضرورة للناس، ومرّة يقولون انتهت النبوة، فهل هي ضرورة أم لا؟ فإن قالوا كانت ضرورة لكن الدين اكتمل، وبيّنا لهم أن لا شيء اكتمل في الحقيقة بالنسبة لعموم الأمة بدليل أنكم لا زلتم تضعون الأصول وتجادلون وتقررون وتكتبون وتفتون وتجتهدون

وتقيسون بأذهانهم وتضعون المشايخ والدعاة ونحو ذلك، فهذه نبوة بدون نبوة وأنبياء بلا نبوة. فإذا نظرت ستجدهم يعتقدون بنهاية النبوة فقط كوسيلة سياسية لردّ خصومهم وإثبات شمولية دولتهم وسرمديتها، وهو أمر يقوم به غيرهم أيضاً. وكل الأدلة التي يعتمدونها لختم النبوة لا شيء منها لا ثابت بحسب بعض أفكارهم ولا شيء منها ثابت بحسب واقعهم العملي. إذا كان الله نوراً وفياضاً فما بال الوحي انقطع؟ إن كان الله يبخل والعياذ بالله بعد ما أعطى مرّة واحدة لمحمد، فلماذا نردّ على مَن قالوا يد الله مغلولة وأنكروا أنه أعطى محمداً أصلاً بحجّة أن دينهم اكتمل من قبل محمد؟

في العبادات، ينكرون عبادة الأصنام بحجّة أنها أحجار لا تضر ولا تنفع، ثم يستقبلون في صلاتهم حجراً ويسافرون لحجر من أصقاع الأرض ويطوفون حوله ويقبّلونه ويرمون حجراً على حجر ويدعون الله على حجر، ثم يقولون "نحن لا نعبد هذه الأحجار"، فإذا قال لهم مَن يسمونهم عباد أصنام "ونحن أيضاً لا نعبد هذه الأحجار وإنما هي رموز على أمور أعلى"، ستجد أنهم أيضاً يردّون بأن أحجارهم إسلامية لأنها شعائر ورموز ونحو ذلك من اعتبارات مجازية وما ورائية (الحجر الأسد "يمين الله في الأرض"، ونحو ذلك). ينكرون رمزية أحجار غيرهم ويعتبرون رمزية أحجارهم. فهل إدخال الأحجار في العبادات معقول أم لا؟ لا ندري. لهم أقوال مختلفة بحسب مَن الذين يخاطبونهم. فإذا تخاصموا فيما بينهم، أي الفرق والمذاهب، ستجد بعضهم يسخر من شعائر بعض ويقول "انظروا إلى هذه الأعمال غير المعقولة والجنونية التي يقومون بها"، لكنهم لا يلاحظون نفس ذلك العمل أو شبهه أو ما هو أغرب منه في مذهبهم.

في المعاملات، في الزواج مثلاً، تجدهم يصححون مذاهب مختلفة متناقضة وأن "لكل مجتهد نصيب"، مع أن بعض المذاهب يجعل الولاية شرط في الزواج وبعضهم لا يجعل الولاية شرط في الزواج أي الولي المغاير للمرأة كالأب، بناء على المذهب الأول الموجب للولاية يكون المذهب المنكر للولاية مجيزاً لغير النكاح الشرعي بالتالي هو زنا عند الله حسب الاعتقاد، إلا أن نقول بأنه لا يوجد شيء عند الله في الأمر وإنما عند الله هو قيامك بما تعتقد أنه عند الله، ومعقولية هذا كما ترى، فإن المجتهد حين يبحث إنما يبحث عن ما يفترض أنه الحكم عند الله، فهل الله يعتبر المرأة التي تنكح بغير وليها زانية أم لا؟ إن كان نعم، فالمذهب المخالف يشرعن الزنا، وإن كان لا، فالمذهب المخالف يقول باطلاً باسم الله. فلا يخلو أحدهما من الكذب على الله أو تعدّي حدود الله. ومع ذلك، عندهم كله اجتهاد ويجوز شرعاً.

هـذه أمـثلة سـريـعة، وإلا فـكل مـسألـة عـلى حـدة تسـتطيع أن تـبحثها تـفصيلاً وتـرى مـدى معقوليتها. وقل مثل ذلك في كل دين.

العقل بمعنى وسيلة تحصيل المنفعة لا يصلح في أمر الدين. لأن المفترض أن الدين يحصّل المنفعة الأخروية بغض النظر عن حال الدنيا إذ في الدنيا من أكبر أهل الأديان قد قاسوا وقُتلوا وحصلت لهم مصائب لا يحصرها إلا الله، فالدين كمنفعة دنيوية لا يصلح جوهرياً، بالتالي منفعته أخروية، وحيث أن المنفعة الأخروية غيبية ومستقبلية، والعقل لا يستطيع أن يعرفها وإلا لكان كل عقل يساوي نبي ولاستغنى الناس بعقولهم عن أنبيائهم وكهّانهم وشيوخهم، فالنتيجة أن قياس المعقولية بالمنافع الأخروية لا يصلح لأننا لن نعرف الآخرة حتى نحلّ فيها وهذه إحالة على الغيب ورجم بالغيب وقول بالظنون يستطيعه الجميع.

وإن قلنا بأن العقل لمنفعة الدنيا وإثبات وجود منفعة ما في الدنيا وراء أي عقيدة أو سلوك يبرر هذه العقيدة والسلوك، فالنتيجة أيضاً أن كل العقائد والسلوكيات يمكن تبريرها عقلياً إذ يمكن استخراج منفعة من كل شيء بلا استثناء إذ لا يخلو أمر من منفعة ولو قلّت، هذا طبعاً على فرض أننا نستطيع قياس المنافع كما نقيس وزن كيس التفاح ودرجة حرارة الجو وهو أمر متعسّر كما هو واضح.

فماذا بقي للعقل؟ تفكيره يصلح لكل شيء، وقياسه يبرر كل شيء، واستعماله يحسنه جميع أهل الأديان. وشاهد مثل هذا لا يشهد بشيء على شيء.

...-...

١١-السيطرة على الأرض [الدولة]

الفكرة : الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والملك له يؤتيه مَن يشاء، فلمّا صارت الدولة لنا وغلبنا أعدائنا فهذا دليل على أن ديننا الذي غلبنا به هو الحق الذي يرضاه الله ويعبّر عن ملكه تعالى في الأرض.

الرد: هذه الفكرة هي أكبر وأخطر ما يستدل به الكثير من الناس، وخصوصاً العوام والجماهير، على صدق وقوة وحقيقة ونفع مذهب أو دين أو فلسفة. هم في الواقع عبيد الدولة. أو بتعبير آخر "نحن مع مَن غلب". كثير من الذين كفروا بالدين في أول أمره حين كان ضعيفاً من ناحية السياسة وعاجزاً لا دولة له، لعلهم آمنوا به لما وجدوا أصحابه يرتفعون في السياسة

ويغلبون في الحروب، فلما وجدوا الدولة جاءت بسبب الدين اعتقدوا بالدين. إلا أن مثل هذا الاعتقاد كما هو ظاهر سيكون مقيداً بالدولة، بمعنى أنهم حتى بعد الاعتقاد بالدين إذا وجدوا في الدين ما لا يلائم أغراض الدولة فإنهم إما سيحرفونه وإما سيطمسونه وإما سينكرونه بكل بساطة ويُعرضوا عنه وكأنه غير موجود. من هنا تنشأ المؤسسات الدينية الرسمية واضطهاد المخالفين ولو كانوا من أهل نفس العقيدة الدينية ثم الانشقاقات الدينية والمذهبية التي تأخذ صورة العقائد والخلاف في فهم النصوص الأصلية لكنها في الواقع نزاعات سياسية لكن لما طغى الدين على السياسة صارت السياسة محتجبة بحجاب الدين. إلى آخر قائمة المآسي المعروفة شرقاً وغرباً ولا يزال الناس يعانون منها بدرجة أو بأخرى. كل ذلك يرجع إلى فكرة واحدة وهي أن الدولة علامة صدق الدين وأن الدين بلا دولة ليس ديناً معتبراً وأن الدولة دليل نصر الله لأهل الدين.

الدليل البسيط والواضح والذي لا يمكن ردّه بحال على مثل هذه الفكرة هو التالي:

كل دين بدأ أهله ضعاف لا دولة لهم فإذا كان معيار الدين وجود الدولة فإن الكفر بالرسل بسبب فقدانهم للدولة في أول أمرهم يكون مبرراً.

بما أن كل دين له دولة أو دول، وعبر التاريخ وإلى اليوم، فهذا يجعل كل الأديان المتناقضة حقاً بنفس حجّة الدولة التي يستطيع جميع هؤلاء الاحتجاج بها. فالكاثوليكي يحتج بالفاتيكان والبروتستانتي يحتج ببريطانيا واليهودي يحتج بإسرائيل والوهابي يحتج بالسعودية والإمامي يحتج بإيران والسني يحتج بالمغرب والشيوعي يحتج بالصين وكوريا الشمالية وأصحاب الأديان البدائية يحتجون بقراهم ومخيماتهم منذ عشرت القرون في مختلف البقاع والعلماني يحتج بأمريكا وهلمّ جرّاً.

إذا كان صعود الدولة يدل على صدق الدين فهبوط الدولة يدل على كذب الدين. بالتالي لابد أن يتقلّب الناس في إيمانهم بحسب تقلّب دولهم وسياساتهم. فمثلاً المسلم الحنفي الماتريدي النقشبندي يجب أن يزداد إيمانه مع صعود الدولة العثمانية لكن يجب أن يكفر بكل ذلك مع إلغاء الدولة العثمانية. الوهابي يجب أن يؤمن بالوهابية مع صعود الدولة السعودية الأولى ثم يكفر بها بعد ما أهلكها الله، ثم يرجع يؤمن بها مع صعود الدولة السعودية الثانية ثم يكفر بها بعد تدمير الله إياها، ثم يرجع ويؤمن بها مع صعود الدولة السعودية الثالثة ثم يكفر بها بعدما-

حسب ما يقال-انتهت وبدأت الدولة السعودية الرابعة "العظمى" كما يقول ناعقوها لكن هذه المرّة يجب أن يكفروا كفراً باتّاً لأن الدولة السعودية الرابعة صارت تضع شيوخ الوهابية في السجون ومَن لم تضعه رضخ لها وغيّر دينه إن كان له دين من أجلها. وبالنسبة لأحاديث آخر الزمان التي يدعو فيها النبي إلى أخذ الرجل لغنمه والتخفي في الجبال يجب على هذا الرجل الكفر بالدين لأنه لا دولة له وصارت الدولة بيد غيره، أو مثلاً حين تمتلئ الأرض جوراً وظلماً فلابد على الناس الإيمان بالجائرين والظالمين لأن الدولة بيدهم فينظروا ما هي عقائدهم ويقبلوها ثم إذا خرج المهدي يكفروا بدينهم الأول ويأخذوا بدين المهدي. أظن سخافة هذا المنطق واضحة من البداية، لكن أحببت أن أفصّلها على وجهها حتى لا تبقى حجّة لغافل ولا عاقل.

ماذا يفعل أهل الدين من أصحاب الدولة س إذا عرض عليهم أهل دين آخر من أصحاب الدولة ص دينهم؟ كلاهما صاحب دولة ويرى أن الله أنعم عليه بالدولة كتحقيق لوعده لهم بالنصر والحفظ والظهور، فلا حجّة لهما إذن إذ كلاهما يرى حجّة دينه في ظهور دولته. فلماذا كان النبي كما يقال يراسل ملوك الروم وفارس والقبط والحبشة وهو لا يزال بالكاد لديه بضعة كيلومترات في الجزيرة بينما أولئك لهم ممالك عظيمة وعريقة ومن قبل أن يولد جد النبي السابع أيضاً. فإن قالوا له "الدولة لنا وأنت بالكاد تستطيع التحكم بابن سلول عندك، فكيف تعرض علينا ما نحن أولى بعرضه عليك؟ اقبل ديننا وحجّتنا هي دولتنا التي هي أقوى وأحسن وأعرق وأقدم من دولتك".

ماذا يفعل كل أهل الأديان اليوم وقد ظهرت الدولة غير الدينية وصارت هي النمط الشائع في الأرض بل الدول غير الدينية أقوى وأحسن من كل وجه معتبر من الدول الدينية، بل رؤساء الدول التي لها دين رسمي يشحذون القوة والبقاء في مناصبهم والدعم والنصر على أعدائهم من الدول التي لا دين رسمي لها، كسؤال السعودية النصر على العراق من أمريكا. فهل هذا دليل على أن الأديان كلها صارت باطلة وأن الإلحاد هو الحق إذ نصر الله لدولة غير دينية دليل حسب المفروض على صدق ما هي عليه في أمر الدين بالتالي يكون فصل الدين عن الدولة هو الحق لأن الله أظهر دولة بلا دين بل وأعطاها من القوة والثروة والغلبة ما لم يعطيه إلى أمّة معروفة في التاريخ ولا الحاضر.

يكفينا ذلك لبيان ضلال الاستدلال بالدولة على صدق الدين وإن كان أكثر الناس ولو سمعوا هذه الحجج لعلهم يستمرون لأنهم عبيد الدولة لا أتباع دين في الحقيقة.

...-...

١٢-تعرّض الخصم لمقتل أو موت قبيح في العادة.

الفكرة: بما أن خصمنا قد قُتل أو مات ميتة قبيحة في العادة فهذا دليل على أن ذلك حصل له بسبب أمر خارق للعادة أو لأن ربنا قد فعل به ذلك لكي يبيّن لنا انتقامه منه وتأكيد أنه كان مخطئاً في حقنا حين ظلمنا أو خاصمنا.

الرد: هذه الحجّة يستعملها الكثير، يستعملها أهل الأديان فيما بينهم أو أهل المذاهب فيما بين من أهل الدين المشترك. محاولة بيان الفكرة بحد ذاتها كافية لإثبات بطلانها. وذلك من وجوه:

الأول، القتل حصل لكل أهل الأديان والمذاهب، أي لرؤوسهم أو بعضهم أو بعض أتباعهم. فكل واحد يستطيع أن يأخذ تاريخ خصومه ويبحث لهم عن شخص من كبارهم أو حتى من عامّتهم وقعت عليه جريمة قتل أو نحو ذلك، فيعتبر ذلك علامة أنه كان مخذولاً من الإله أو الآلهة. وهذا لن يعجز عنه أحد، لا في الدين ولا في السياسة. بل فكرة "الشهداء" بحد ذاتها كافية لإبطال مثل هذه الحجّة لأن الشهداء عادةً ما يُقتَلون قتلة شنيعة ومؤلِمة كالذي حدث لبعض الصحابة ممن قطّعوه ثم صلبوه أو مَن نُشر بالمناشير أو مَن أُحرق بالنار من الصالحين من مختلف الأديان والمذاهب.

الثاني، تعريف الميتة "القبيحة" و المخالفة للعادة، أيضاً أمر نسبي جداً وأيا كان تعريفك فيمكن أن تجد في كل دين ومذهب جماعة ماتوا بذلك النحو. ولو كان التدين الحق يؤدي إلى الحفظ من القتل والموت ميتة عادية طبيعية (لا أدري، هل يعيش ١٢٠ سنة ثم يموت وهو نائم؟) لوجب أن نرى كل أهل هذا الدين لا يُقتَلون ولا يموتون إلا الميتة الطبيعية بحسب تعريفنا لها.

الثالث، بعض خصوم أهل الدين والمذهب لم يُقتَلوا وماتو ميتة طبيعية، بل وعاشوا في الظاهر عيشة هنيئة ورغدة وفي ثروة ووسط أهلهم، بينما بعض أكابر المتدينين مات في سجنه وحيداً مظلوماً أو قُتل بعد رؤية مقتل جميع أصحابه وأتباعه وأطفاله أحياناً، وبعضهم عُذّب ثم صُلب،

وبعضهم عُذّب ثم أكلته الأسود، وهلمّ جرّاً. فإذا كان التديّن والتمذهب بالباطل ينتج ميتة قبيحة فلابد أن ينتج التدين بالحق ميتة حسنة، بنحو سببي ومطرد. وهذا لا يجرؤ على ادعائه أحد.

الرابع، لماذا تكون كيفية الموت علامة على رضا أو غضب الإله، بينما كيفية الحياة ليست كذلك أيضاً؟ فقد رأينا أن كيفية الموت لا تدلّ على حقيقة دين الميت، وكذلك أيضاً كيفية الحياة لا تدل بالضرورة وبنحو ظاهر للناس على حقيقة دين الميت، لأن أهل الدين الواحد تجد فيهم كيفيات موت وحياة مختلفة كل الاختلاف في الصورة ومتناقضة وتشبه ما تجده في أهل الدين المناقض له، فانظر ما شئت من ظواهر في الحياة وفي الموت وستجدها في مختلف أهل الأديان.

في الإسلام مثلاً. النبي يُقال أنه قُتل مسموماً، أبوبكر يقال قُتل مسموماً، عمر قُتل طعناً، عثمان قُتل محاصراً عطشاناً مهاناً، علي قُتل بعد ضربة سيف على رأسه بقي يعاني منها لأيام، الحسن قُتل مسموماً حتى تقطّعت كبده ولفظها من فمه، الحسين قُتل هو وأهل بيته وأصحابه الرجال وبعض أطفاله كما يقال ولم يبق منهم إلا واحد وأُخذ نساؤه شبه سبايا ثم مُثّل به وداسه حوافر الخيل ثم بقيت جثّته اليوم شاهدة على ما حصل له عبر دفن رأسه في مصر وجسمه في العراق، ثم من الصحابة مَن مات مقتولاً في معركة، ومن الصالحين من مات في السجن أو في الغربة أو بتعذيب شديد ودُفن حياً أو قُطّعت أطرافه وهو حي ثم صُلب وحُرق وذُرّ رماده في دجلة ومنهم مَن مات جوعاً في السجن ومنهم مَن خُنق وهو نائم ومنهم ومنهم ومنهم وحدّث ولا حرج ولا تكاد تجد قتلة أو ميتة "قبيحة" إلا وقد عانى منها بعض المسلمين بل ومن علماء وأولياء المسلمين، هذا في كيفيات الموت. أما في كيفيات الحياة، فستجد كل شيء من بين بطر قارون إلى فقر المجنون، ومن فخامة القصور إلى سخافة الجُحور، ومن سلامة العائلة إلى الغربة الهائلة، ومن صحبة المدن مع الإخوان إلى التفرّد في الصحاري مع الجان.

من أدلّة ليس فقط سوء عقل بل خباثة طباع كثير من أهل الأديان أنهم يستدلّون بقبح ميتة سادتهم وأتباعهم على أنهم من الصابرين في سبيل الحق، لكن يستدلّون بقبح ميتة سادة غيرهم وغير أتباعهم على أنها شهادة كفرهم بالحق. هذه من الشواهد على أنهم أهل سياسة وليسوا أهل حقيقة. السياسة السافلة لا العادلة.

...-...

١٣-وجود "الروحانيين" عندنا.

الفكرة: الروح حق، ولا يُعطى الروح وتُفتَح أبواب عالَم الروح وتُفاض قوى الروح إلا على أهل الحق، وحيث أننا نجد في أتباع ديننا أهل الروح فديننا حق، ولأن الأديان متعارضة وما يعارض الحق باطل فديننا الحق ودين غيرنا باطل.

الرد: أوّلاً، حسب رؤيتنا الإسلامية على الأقلّ وكثير غيرها، كل إنسان فيه من الروح ومنفوخ فيه الروح. وبناء على طهارة الفطرة الأصلية، يصبح ليس الغريب وجود آثار الروح في الإنسان بل الغريب عدم وجودها، بمعنى أن وجودها مقتضى الإنسانية ذاتها وعدم وجودها هو الذي عليه الكلام. بالتالي، حين نجد أكثر أو كثير جداً من أتباع الأديان ليس فيهم آثار الروح والروحانية فهذا هو الذي ينبغي تفسيره، وحيث أننا نجد أن في عقائدهم وسلوكهم ما يجعلهم غير روحانيين، فحينها نستطيع نقد هذه الأديان لأنها أغلقت أبواب الروح على أتباعها.

ثانياً، لا أعرف تعريفاً للروح إلا ويوجد في أكثر من دين على أقلّ تقدير مَن توجد فيه آثارها. فإذا قلنا أن آثار الروح هي المكاشفات والكرامات والأخلاق والزهد والتضحية بالنفس في سبيل الدين والقيام بالحق والعدل وقول العبارات العالية في الحكمة الإلهية، فهذه موجودة في كل الأديان المعروفة لنا، ومن أتباع مختلف المذاهب في الدين الواحد ستجد مثل ذلك بدرجة أو بأخرى. فإذا قلنا بأن هذه الآثار لابد أن تكون من الروح، ووجود أدنى أثر يدل على. وجود السبب مهما ضعف وجوده وإشراقه، فهذا يعني أن الروح موجودة في مختلف أهل الأديان والمذاهب وإن بدرجات مختلفة، وبالتالي يصبح في كل هؤلاء من الحق بقدر ما فيهم من الآثار الروحانية.

ثالثاً، تعارض الأديان ليس مطلقاً ومن كل وجه، فلابد يوجد دينان إلا وبينهما من المشتركات في العقائد والشرائع الشيء الكثير ولو اختلفت الصورة والجزئيات بل أحياناً توجد الأمور وبنفس الصورة بل ونفس الفكرة تماماً حتى أنك إذا عبّرت عن ذات الفكرة لأشخاص من أتباع هذه الأديان فكل واحد سينسبها إلى دينه وشيوخه والحق أنها موجودة عند غيره ولعلك تنقل النص من نص هو نفسه يكفر به. فالدين ليس جملة واحدة، أو شيء مُعلّب تأخذه كلّه أو ترفضه كلّه وحين يوجد في مكان إما تجده كلّه وإما تفقده كلّه، بل هو مقولات علمية وعملية مختلفة، أخبار وأوامر متعددة. تجد بعضها عند مختلف أهل الأديان والمذاهب وتفقد بعضها

أيضاً فيهم كلهم. بمعنى أنك قد تجد عند السنّي المسلم والكاثوليكي المسيحي والأورثودكسي اليهودي أمراً مشتركاً، وهذا الأمر ذاته لا تجده عند الشيعي المسلم والبروتستانتي المسيحي والليبرالي اليهودي مثلاً. وقس على ذلك بين أهل الأديان الأخرى. الروابط بين الأديان أكثر وأعمق مما يريد عادةً رؤساء هذه الأديان الاعتراف به والتفريع عليه. فكيف نفسّر وجود هذه المشتركات، مع الإقرار بالاختلافات أيضاً، لكن المشتركات كيف تفسّرها؟ إن قلت بأنها ثمار الحق وفتح باب الروح، حسناً، فوجود عينها عند غير أهل دينك دليل أنه هو الآخر أكل من شجرة الحق وفُتح له باب الروح أو على الأقلّ نافذة منه.

رابعاً، تكفي قراءة بعض سير المتصوفة من المسلمين، والرهبان المسيحيين، والكاباليين اليهود، والزِّن من البوديين، وأتباع شانكرا من الهندوس، ومَن يشبه هؤلاء من بقية أهل الأديان، لترى أن ظاهرة الروحانيين شائعة بين مختلف أهل الأديان. بل لعل الروحاني يكون منبوذاً من عامّة أهل دينه، بل لعلهم يكفرونه ويبغضونه، وإن كان رؤساء العوام من كل دين يُقدّمون هؤلاء بالذكر حين يفاخرون الأمم بالروحانية والأمور العرفانية والروابط العالية الإنسانية العالَمية. لو كان الدين ذاته يصنع الروحانيين، لوجدنا على الأقلّ أكثرية بل نصف بل يكفي ثلث بل يكفي سُدس أهل كل دين من الروحانيين، لكن الواقع أنك لا تجد هذه الدرجة العالية من الروحانية إلا في قلّة قليلة جداً أو على الأقلّ الظاهر على سطح الوعي الاجتماعي منهم. إلا أننا لا نعدم رؤية درجات عالية من الروحانية في جميع أهل الأديان، ولو وُجد واحد فقط لكفى لإثبات أن دينه الرسمي لم يحل بينه وبين فتح أبواب الروح له، مما يثبت عدم الارتباط الجوهري بين الدين الرسمي وبين الطريق الروحاني. فانظر مثلاً إلى ابن عربي ومايستر إيكهارت وإسحاق لوريا ودوجِن وشانكرا لتعرف مدى بطلان ربط الدين الرسمي كسبب واحد وحيد للترقي الروحاني.

...-...

١٤-الانتاج الفني الرفيع والبديع.

الفكرة: الفن أثر القلب. والقلب إما متصل بالسماء وإما منقطع عنها. فإذا وجدنا فناً رفيعاً دلّ هذا على الاتصال بالسماء. فحيث أننا نجد في أتباع ديننا أصحاب فن رفيع كصنع التماثيل والهندسة والكلام بمختلف أصنافه كالشعر والأدب والحكمة، فهذا دليل على أن ديننا من السماء وموصول بالسماء.

الرد: نفس ما قلناه في النقطة السابقة ينطبق هنا. إن جاء مسيحي بأشكال كنائسه وشعر دانتي وموسيقى باخ، جاء المسلم بالمساجد العثمانية وشعر جلال الدين الرومي والموسيقى الأندلسية. هذا ردّ.

ردّ آخر، أن ننظر في تاريخ الدين وأوّل رجاله، وسنرى أنهم لم يصنعوا هذه الفنون التي نشأت لاحقاً والتي يفخر ويحتج بها بعض أهل الأديان. فقد استمعت مثلاً إلى بروتستانتي خرج منها إلى الكاثوليكية وادعى أن الفن الذي صنعه الأوروبيين الكاثوليك في العصور الوسطى دليل على أن لهم اتصال بالسماء والحق وإلا فكيف فاض منهم هذا الجمال. طبعاً هذا الاحتجاج ضعيف جداً بل باطل قطعاً إن كان لغرض إثبات حقانية المذهب فضلاً عن حقانية الدين. لأن البروتستانتي وغيره سيقول له "إن يسوع وأصحابه لم يؤلفوا موسيقى باخ ولم يبنوا كنيسة شارت، بل كانوا لو رأينا مثلهم اليوم على هيئة وحال لو رأيناهم اليوم لاعتبرناهم من المتسولين والفقراء المعدمين الذين يحتاجون إلى رعاية ومعونة مادية".

نعم، إن حجّة الفنّ كشاهد على الوحي السماوي، أوّل مَن بدأها حسب علمي هو النبي بالقرءان. لأن القرءان كما هو النمط الشائع لفهم إعجازه، احتجّ بالبلاغة، وهي فن. فالفنّ شاهد الوحي. قد يقال هذا كتأويل للاحتجاج بالبلاغة على الوحي. وأما في بقية الأديان، فلم يبلغني ولم أطلع على أحد منهم احتج بالفن الكلامي أو المعماري أو أي فن يُصنع باليد على صدق دعوى الوحي والاتصال بالغيب والسماء.

لكن على أية حال، نستطيع أيضاً الإتيان بتماثيل ومباني وجمال لغوي وأدبي في جميع الأقوام، ولا أقلّ أن الأمر يصبح مشتبهاً بدرجة لا يمكن الفصل فيها بين الدعاوى المتناقضة.

ثم قد يوجد ما ينطبق عليه اسم الفن الجميل لكن من ملحدين. بل ما هو أهمّ من هذا، ماذا عن القبح الذي تنتجه أهل هذه الأديان؟ حسناً، إن رأينا مثلاً معبداً جميلاً سنقول أنه أثر الروح فيهم، لكن ماذا عن الكثير جداً من المباني القبيحة والباردة والمقيتة للقلب السليم بل وغير السليم فإن هذا الصنف يوجد أيضاً بكثرة في شرق العالم وغربه، فإذا كان حسن المبنى دليل الروح والحق (على أساس قول أفلاطون "الجمال زينة الحق") فإن قبح المبنى دليل على الظلمة والباطل، فهل يلتزمون بذلك؟ لا أظن. إذا أحصينا نسبة المباني الجميلة إلى المباني القبيحة أو العادية في أهل كل دين سنجد إما تقارباً في أحسن الأحوال أو لعل المباني

القبيحة والعادية تطغى. وقل مثل ذلك في باقي الفنون. هذا مظهر آخر على عدم الإنصاف في مثل هذه الحجج الضعيفة للإيمان وتبيّن أن القوم يلعبون سياسة ولا يؤمنون بحقيقة.

...-...

١٥-صدق الوعد بالنصر على العدو في الدنيا.

الفكرة: الوعد بالمستقبل الواقعي يدل على أن مُصدر الوعد يعلم المستقبل، ولا يعلم المستقبل إلا الخالق، فلمّا صدق وعده لنا بالنصر بالرغم من ضعفنا في البداية فهذا يدل على أنه ينصرنا.

الرد: أوّلاً، كل أهل دين بدأوا في العادة ضعاف مقهورين ثم انتصروا على عدوهم. لكن بعد ذلك قد ينهزمون وقد يضعفون من جديد ويقهرهم عدوهم. فمن الوجهين لا حجّة خاصّة بأهل دين دون سواه. وهذا تابع لحجّة الدولة من وجه.

ثانياً، الاعتقاد بأن المستقبل مرسوم قطعاً مبني على عقيدة الجبر، وهذه عقيدة لا يؤمن بها جميع أهل الأديان أنفسهم.

ثالثاً، قصر علم المستقبل على "الخالق" بالمعنى الحصري، هو عقيدة خاصة من وجوه، منها وحدة الخالق، ومنها طبيعة الإنسان، ومنها أنواع الكائنات في الوجود، وغير ذلك من الاعتبارات التي تختلف فيها أهل الديانات. فتكون هذه حجّة لمن يعتقد بلون معين منها دون سواه.

رابعاً، إذا كان انتصاركم بعد الضعف دليل نصرته لكم، فهل ضعفكم بعد قوتكم دليل خذلانه لكم؟ فإذا كان نصر المسلمين مثلاً في أول أمرهم دليل صدق الإسلام، فهل غلبة التتار عليهم دليل بطلان الإسلام وصدق دين جنكيز خان الذي ادعى أن الإله أوحى له بفتح الأرض له وقد حصل فعلاً ذلك إلى حد كبير حتى أن جنوده داسوا "الخليفة" العباسي المسلم بالأقدام بعدما وضعوه في كيس حتى قتلوه، فهل هذا عنوان صدق البودية وبطلان الإسلام. إذا كان النصر في بدر يدل على نصرة الله وبالتالي صدق الإسلام، فهل إذا شهد شخص هزيمة أحد المنكرة وكفر بالإسلام ومات قبل ما يأتي النصر بعد معركة أحد فهل له حجّة يوم الدين بأن

يقول لله "علامة صدق دينك هي النصر في الدنيا على العدو، فلما رأيت قريش هزمت المسلمين أنكرت الإسلام"، فلابد أن تكون له حجّة بناء على هذا الميزان. وقس على ذلك.

مما يذكره البعض تحت هذا البند بعض اليهود المعاصرين. الذين يرون إنشاء دولة إسرائيل الصهيونية دليل على صدق الوعد الإلهي لهم بالعودة إلى أرضهم، فهذا دليل على صدق دينهم وكتبهم وعقيدتهم وأن الإله معهم. ويرد على ذلك:

أوّلاً، الحكم على كل يهودي ما قبل بناء هذه الدولة في جميع القرون الخالية بأنه كان شاكاً في الإله وصدق دينه لأنه لم يشهد صدق تحقق الوعد بعد.

ثانياً، الوعد في كتبهم حسب النص هو رجوع جميعهم إلى فلسطين، لكن الواقع أن نصفهم تقريباً يعيشون في دول خارج الدولة الصهيونية.

ثالثاً، يوجد من اليهود أنفسهم مَن ينكر هذه الدولة إنكار ديني وليس فقط سياسي، فلا يراها تحقق لوعد إلهي بل يعتبرها مؤسسة علمانية بحتة. ويعزز قولهم هذا أن عدد هائل من يهود هذه الدولة إما علمانيين وإما ملاحدة وعلى أية حال صلتهم بالدين والإله يبدو أنها مسألة ثقافية قَبَلية أكثر منها عقائدية إيمانية.

رابعاً، الذي يعتقد بأن تحقق الوعد سيكون عبر غزو الجيوش غير مَن يعتقد بأنه سيكون بنحو خارق للعادة وبوسيلة سلمية لا تعمّل فيها من اليهود أنفسهم، فهذا انقسام جوهري في الحجّة، بحيث يكون الفريق الثاني منكراً لصدق تحقق الوعد الذي يرى الفريق الأول أنه مصداقه (كما قال أحد رؤسائهم عن جيشهم بأنه الذي يحقق نبوءات كتابهم).

خامساً، إن كان عودة اليهود إلى فلسطين دليل أن اليهودية حق، فلابد أن تكون عودة النبي فاتحاً إلى مكة دليل أن الإسلام حق بل أحق لأنها حدثت في زمنه وفي وقت قول كلمته "إن الذي فرض عليك القرءان لرادّك إلى معاد" و "لتدخلن المسجد الحرام" وغير ذلك مما قاله النبي، بل قال في زمانه ما يبدو أبعد عن التخيّل المعتاد في مثل ذلك الظرف الذي كانوا يعيشونه وهو أن أتباعه سيفتحون الفرس والروم وهما أكبر دولتين في ذلك الزمان ومع ذلك صدق ذلك أحدهما بعد عقود والآخر بدأ أيضاً بعده بقليل واستمر حتى حصل ما ترونه اليوم في تركيا "لتفتحن القسطنطينية"، فأقلّ ما يجب هو إيمان مَن يؤمن باليهودية بناء على حجّة العودة بالإسلام أيضاً لنفس الحجّة بل ما هو أظهر منها وأعزّ.

الحاصل: هؤلاء حين يكون بيدهم وعد بشيء، إذا تحقق قالوا "ديننا حق"، وإذا لم يتحقق بعد قالوا "علينا واجب الصبر". فالغلبة عندهم حجّة لهم، والهزيمة عندهم ليست حجّة عليهم. و"تلك إذاً قسمةٌ ضِيزى".

...-...

١٦-صعوبة التشريعات والتزام الناس بها.

(هذه الحجّة سمعتها من شيخ يهودي، لكن قد يستعملها غيره بتعديل ما).

الفكرة: لولا أن الأمّة شهدت أمراً إلهياً حقاً، لما قبلت الالتزام طوعاً بالتشريعات الصعبة التي جاء بها الرسول إليهم، لأنها مضادة للشهوة والراحة المجبول عليهما الإنسان.

اليهودي الذي استعمل هذه الحجّة أراد بها ما يلي. في كتابهم أن الإسرائليين بعد خروجهم من مصر مع موسى وهم في طريقهم إلى أرض الميعاد، كلمهم الإله كلهم فعرفوا أن موسى رسول صادق، خلافاً لأهل الأديان الأخرى التي يأتي فيها شخص واحد ويدعي أمراً ويستحيل عليهم معرفة إن كان صادقاً أم كاذباً، فهذا الوحي الجماعي ظاهرة فريدة لليهود لا توجد في غيرهم من الأمم. والدليل على حدوثها أن الإسرائليين التزموا بالتشريعات الكثيرة المعقدة التي جاء بها موسى، ولولا أنهم ءامنوا به ببينة ظاهرة لما فهمنا سبب ذلك.

أقول:
أوّلاً، في البودية ٣٣ ألف حكم شرعي، وفي الهندوسية تعقيدات لا يعلم بها إلا الله ومنها تلويث بعض الناس أنفسهم بروث البقر وترك البقر تدعس عليهم، وفي الإسلام أكثر من مليون تفريعة فقهية وتفصيلة، وفي المسيحيين مَن كان يعيش في الكهوف ويخصي نفسه ويجوّع نفسه بالأيام والأسابيع. عن أي تعقيدات تشريعية تتحدّث وفي اليهودية ٦٠٠ حكم شرعي تقريباً أقصد في التوراة التي بأيديكم.

ثانياً، ما الذي جعل العرب والأعراب وفي ظرف عقدين من الزمن تقريباً لترك ما كانوا عليه والأخذ بالإسلام حتى تغيّر وجه العالم لا العربي بل غير العربي أيضاً وإلى اليوم بعد مجئ رسول واحد فقط.

ثالثاً، القصّة التي تحكيها عن الوحي الجماعي، هذه موجودة في كتابكم أنتم، ولا يقول بها غيركم. ثم إذا نظرنا في نفس القصّة سنجد نقوداً كثيرة عليها لكن لا أريد الدخول في هذا الآن. المهم أنها قصّة تحكونها أنتم والله أعلم بصدقها ومدى صدق التزام تلك الأمّة بها حقاً.

رابعاً، إذا نظرنا في التاريخ اليهودي ذاته الذي تحكيه تلك الكتب وأنتم تحكونه، سنجد ارتداد كثير عن أوامر موسى فمن بعده، ارتداد في العقيدة فضلاً عن السلوك. فأين الالتزام المطلق أو الشديد الذي تتحدّث عنه.

خامساً، في نفس قصّتكم تلك ستجد أن موسى قتل إنساناً لأنه جمع طعاماً في يوم السبت فخالف حكم السبت. بناء على ذلك، يمكن أن نبرر طاعة العامّة لأوامره بأنها كانت عن رعب وعنف وإكراه وخوف من مخالفتها، وليس إيماناً بمكاشفة إلهية حدثت للجميع.

سادساً، أنتم تؤمنون بأنبياء كثر، وكثير منهم كتبهم في ديوانكم كأشعياء وحزقيال وإرميا، فضلاً عن مَن لا كتب لهم وهم حسب التلمود قد يبلغون مليون نبي أو يزيدون على ما أذكر. فهل كل هؤلاء الذين قبلتم كتبهم حصل لهم وحي جماعي أيضاً؟ قطعاً لا. ونستطيع أن نرى الوحي الذي جاءه في نفس كتابه كأن يقول مثلاً أنه كان جالساً بقرب نهر كذا وفي تاريخ كذا وجاءته كلمة الرب، فهذا وحي فردي، ومع ذلك آمنتم به وجعلتم كتابه في ديوانكم، فكيف عرفتم أنه صادق؟ قطعاً ليس بطريق الوحي الجماعي. ولو قلتم "لأن كتابه لم يخالف توراة موسى" قلت: فهل كل مَن جاء بكلام لا يخالف توراة موسى يكون صادق في أنه نبي من عند الله؟ إذن لكثر أدعياء النبوة بلا برهان. ثم إن كان كل كلامه موجود في التوراة فما فائدة الوحي الجديد؟ وإن كان في كلامه ما ليس في التوراة، فهو إضافة بالتالي هي وحي جديد لابد له من وحي جماعي للأمّة حتى تؤمن به كما تقولون. وإن كان كلامه يندرج تحت كليات التوراة ويدعو إلى العمل بها، فقد جعلتم كل داعي لشيء مدعي النبوة لا برهان عليه لمجرد أنه دعا إلى كتابكم، وهذه فوضى لا بيّنة عليها. ثم إن هؤلاء الأنبياء تنبأوا بأمور لم تنص عليها التوراة مثل حوادث مستقبلية ووصف لواقع الأمّة في زمانه، وهذا غير منصوص عليه في التوراة ولا مندرج تحت كلياتها التعليمية لأنه وصف لمستقبل وواقع حالي. فلا مناص من الإيمان بإمكانية الاعتقاد بالوحي الفردي بطريق غير الوحي الجماعي.

سابعاً، بناء على قصتكم، الإسرائيليون كانوا عبيداً لقرون عديدة في مصر، بالتالي نفسيتهم نفسية عبيد، والعبيد يكرهون الحرية العملية والقيام بالاختيارات الفردية والشخصية، فقد يكون التزامهم بالأوامر الكثيرة التي تقيدهم أمر راجع إلى اعتيادهم على التقيّد بقوانين وضعها غيرهم من فوقهم. والعمل بحسب عادة النفس أمر لا يحتاج تبريره إلى خوارق عادات.

ثامناً، لا تذهب بعيداً، تعال ننظر إلى اليهود اليوم بل وفي دولة إسرائيل لنرى مدى التزامهم بأحكام اليهودية، لنرى مدى اعتقادهم بقيمة الوحي الجماعي الذي تشير إليه. وسنجد أن الكثير من اليهود الذين كانوا ملتزمين بالسبت مثلاً حين كانوا يعيشون في اليمن وسوريا قد أصبحوا من العلمانيين حين ذهبوا إلى "أرض الميعاد".

تاسعاً، لنفرض أن الوحي الجماعي كان حقاً قبل ثلاثة آلاف سنة، لكنه لم يعد حقاً بعد ذلك ولو بيوم أو لا أقلّ بعد جيل، لأن كل جيل لم يحضر تلك الحادثة هي بالنسبة له حكاية تاريخية وليست واقعة شهودية، بالتالي تصبح الحجّة للحكاية التاريخية وهي مخالفة لجوهر الواقعة الشهودية التي تحتجون بها على صدق أصل الوحي، فهو نوع احتجاج آخر، فتخرجون بذلك عن الأصل الذي قررتموه.

عاشراً، نص التوراة نفسه الذي بأيديكم لا يوجد نسخة منه ترجع إلى أكثر من القرن التاسع الميلادي تقريباً، يعني بعد ظهور الإسلام وانتشاره. والنص نفسه باعترافكم قد فُقد في زمن تدمير المعبد ثم استرجعه عزرا بطريق ما، فقد قبلتم نصّاً لم تسمعوه من الإله بالوحي الجماعي إذن. وفقه التوراة، أي التلمود، إنما جمعه لكم فرد هو يهودا ها ناسي. فنص توراتكم من فرد، وفقه توراتكم من فرد، ومهما قيل عن وجود شهود عليهما، فقطعاً لا يرقى ذلك إلى شهادة نحو مليونين إنسان للوحي الجماعي في زمن موسى الذي تحتجون به والموجود ذكره فقط في نصّ التوراة الذي جاء به الفرد عزرا بعد أكثر من ألف سنة من الحكاية المزعومة للوحي الجماعي.

ثم إن إبراهام نفسه الذي تُرجعون إليه الوعد بأرض فلسطين، كيف صدقتموه والوحي الذي جاءه لم يكن وحياً جماعياً بل كان وحي لفرد.

ونختم بتعليق أخير: حتى في قصّة الوحي الجماعي، نجد أن الإله نطق بكلمتين فقط سمعتها الأمّة كلها، وهي عن التوحيد. ثم بعد ذلك يقال بأنهم صرخوا لموسى أن اسمع أنت من الرب

ونحن سنسمع منك أو ما أشبه. حسناً. التوحيد قد عرفناه بدون الوحي أصلاً، ثم إذا قرأتم دلالة الحائرين لابن ميمون ستجدون أنه كان يحارب مفهوم التوحيد التجسيمي الباطل الذي كان يعتقد به الكثير من اليهود بناء على نصوص من كتبكم الدينية هذه ذاتها ومن ضمنها الكتب الخمسة الأولى (التوراة)، وإذا قرأنا تواريخكم نفسها سنجدكم قد خرجتم عن التوحيد إلى الوثنية مرات عديدة. فهذا عن التوحيد الذي سمعوه بالوحي الجماعي وهو كما ترى. هذا على فرض أنهم عرفوا ما الذي سمعوه وأيقنوا بأنه الإله، لأننا سنقول: وما أدراهم أن هذا الذي سمعوه هو الإله حقاً؟ إن قالوا "عرفوا ذلك وجدانياً" قلنا: حسناً، ونحن نعرف صدق الوحي الفردي أيضاً بالدليل الوجداني. فوجود عدد هائل في مكان واحد وسماعهم صوتاً من السماء لا يدل بذاته على أنه صوت الإله، إلا بإضافة دليل آخر وهو الدليل الوجداني، لأنه توجد كائنات كثيرة في العوالم ولعل أحدها هو الذي نطق بذلك الصوت الذي سمعوه. فتعود الحجّة للوجدان لا للكثرة البشرية السامعة. والوجدان أمر فردي. حسناً. بعد ذلك. لم يسمعوا من هذا الصوت أن موسى لن يكذب أو لا يمكن أن يكذب، فما أدراهم لعل موسى بعد ما سمعوا هذا الصوت قد كذب على الإله واخترع لهم تشريعات من عند نفسه، فبما أنه لا يجب التصديق بشيء إلا بعد الوحي الجماعي الشاهد له، فما أدراهم بقضية صدق الرسول وعصمته من الكذب بضمان الإله له ذلك وهم لم يسمعوها في نصّ ما سمعوه كما تحكون. فلابد من أدلة أخرى تعزز ذلك وهي كلها خارجة عن أصل الوحي الجماعي.

الحاصل: هذه الحجّة (أقصد الوحي الجماعي مع التشريعات الصعبة) لا يقول بها إلا اليهود فيما أعلم، وقد فصّلت فيها لأن ما وجدته في بعض شيوخهم يدل على أنهم يعتبرونها الحجّة القاطعة الفاصلة المميزة للدين اليهودي عن سائر الأديان. وهي كما ترى، فيها ما يزيد على عشرة نقاط ضعف واحدة منها كافية لتضعيفها.

...-...

الحجج الميتة للإيمان.

١-اتّباع كثير من الناس لهذا الدين.

الفكرة: لا يمكن أن يغلط الكثير من الناس في قرارهم باتباع دين ما. فبما أنني أجد أكثر الناس حولي يتبعون دين ما فهو حق.

الرد: هذه الحجّة أضعف من أن يُرد عليها. وقد ذكرتها لأني تناقشت في موضوع الكتاب مع شخص وذكرها. وقلت لها إن الحجج على ثلاثة أصناف، ميتة وضعيفة وقوية. القوية ليست موضوع هذا الكتاب، لكن الضعيفة فقط، وأما الميتة فهي التي مجرد ذكرها يدل على ردّها. لكن مع الأسف سنجد أن أكثر الناس فعلاً يتبعون دينهم بسبب الحجّة ١ و ٢ وهما من الحجج الميتة.

وردّها سهل جداً بل يكاد يكون من السفاهة مجرد مناقشتها. لأنه بكل بساطة:

من جهة، إذا نظرنا إلى "أكثر" الناس سنجدهم دائماً متفقون على إنكار دين معين، لأن أكثرية البشرية دائماً في صفّ إنكار شيء ما وإن اختلفوا فيما بينهم بعد ذلك في ما يؤمنون بصدقه، لكنهم اجتمعوا على تكذيب أمر ما. مثلاً، أكثرية الناس يؤمنون بكذب الإسلام لأن المسلمين خمس العالم في عدد السكان، إذن أربعة أخماس البشرية تؤمن بكذب الإسلام أو على الأقل تنكر اتباعه. وكذلك الحال إذا دخلت في أي مذهب داخل أي دين وقارنته ببقية ما عليه البشرية ومن ضمنهم أتباع هذا الدين من أهل المذاهب الأخرى، ستجد أن الأكثرية دائماً ضد أمر ما ومفارقين له بهذا الاعتبار.

من جهة أخرى، كونك في بلدة ما أكثرية أهلها على دين ما، إنما يدل على حال هذه البلدة وتقيد نظرك بها، فهو يدل على قصور نظرك لا على قوّة حجّتك. لأنك إذا ذهبت إلى البلدة المجاورة ستجد الأكثرية على حال أخرى.

من جهة ثالثة، الأكثرية في كل دين لا يعقلون شيئاً بشكل عام من حقائق الدين، بل هم مُقلّدة على عمى لآبائهم وشيوخهم ورؤسائهم. فلننظر مثلاً في الكاثوليكية. نعم عددهم مليار وثلاثمائة مليون، لكن عدد شيوخهم بأصنافهم والذين يتبعهم هؤلاء فيما يقولونه ويحددونه من أمر العقيدة إنما هو بضعة مئات يرأسهم بابا الفاتيكان الذي يحدد العقيدة الصحيحة للبقية، ثم بقية الشيوخ في العالَم وأهل الفكر والتعلّم فيهم لا يجاوزون مائتين ألف إنسان. يعني الغالبية العظمى الساحقة من الكاثوليك لا يعقلون شيئاً بأنفسهم، بل يحدد لهم مَن نسبتهم أقلّ من عشر عشر الواحد في المائة تقريباً ما يعتقدونه ويجب عليهم سلوكه. فكيف يتم حساب هذه الأصفار البشرية على أنها عدد له قيمة وهم مجرّد أصفار خلف واحد والصفر خلف الواحد لا يساوي شيئاً. نعم، لو وجدنا مليار وثلامائة مليون أو لنقل حتى نصف مليار كاثوليكي من أهل الكشف والعقل والنظر والتأمل والدراسة أي أهل الكشف أو أهل الاجتهاد ثم اختار الكاثوليكية لكان لذلك اعتبار ما، لكن والحال ما عليه فلا قيمة لهذه الأعداد الهائلة أصلاً في ميزان الحق، بل هُم مقلّدة وكما قال العقلاء "لا فرق بين بهيمة تُقاد ومُقلِّد ينقاد".

وقل مثل ذلك في بقية أهل الأديان عموماً. بالتالي التهويل بالأرقام لا قيمة له في مثل هذه الحالة.

من جهة رابعة، تحديد قضايا الوجود والحقيقة لا يرجع إلى العملية الديمقراطية حتى يُحكَم فيها بالأكثرية. بل ما هو أهم، منذ متى كانت هذه الأديان عموماً تؤمن بالديمقراطية وحكم الأغلبية ! هذا مظهر آخر لعدم الإنصاف والاستقامة. حين تنفعهم الأغلبية في وهمهم يستعملون حكمها، وحين لا تنفعهم لطلب الجاه والماديات والرئاسة ينكرونها. قلت مراراً، يلعبون سياسة منحطة ولا يتبعون حقيقة ولا عدالة.

الحجّة الثانية الميتة:

٢-الولادة.

الفكرة: لا أدري كيف أصوغ فكرة تدعم مثل هذه الحجّة بأحسن صورة. لكن لنحاول. يبدو أن أكثر الناس يتبع الدين لأنه وُلد فيه لا غير. فإما أن يقول "ديني هو الحق لأني ولدت فيه، وأنا مصطفى من الإله ومعتنى به، فلا يمكن أن يجعلني أُولد إلا في الدين الحق"، لا أدري هل هذه صورة منطقية لمن يحتج بالولادة؟ نعم، الذين يحتجون بالولادة عملياً لا يجرءون على الاحتجاج بها نظرياً. وكلامنا عن محاولة وضع صورة نظرية للحجّة. عملياً، أكثر الناس لا يبالي كثيراً بالدين ويهتم فقط به لأنه ولد فيه، ولا يريد مخالفة عائلته وقومه. الولادة حجّة قوية عملياً في زمن أو في مجتمع لا يقوم على الفردية والمؤسسات العامّة المحايدة من باب الدين والمعيشة، لذلك كان الانتماء الديني جزء من الانتماء الاجتماعي والسياسي. والخروج عن دين العائلة يعني النبذ في مجتمع متعصب مغلق، والخروج عن دين الدولة يعني الحرب، هذا كان النمط الشائع والاستثناءات القليلة كانت مندرجة في الإطار الكلي الذي تسمح به العائلة والدولة هذا إن وُجد استثناء أصلاً. الاحتجاج بالولادة عملياً هو احتجاج للسلامة الجسدية والمالية واقعياً. فهي ليست حجّة لكنها تقية.

وأما مَن أراد الاحتجاج بالولادة نظرياً، فيكفي أن نشير ولو كنّا سنظهر بصورة المتنطع الذي يتكلّم في الأمور الفارغة: أنت ولدت مسلماً، وغيرك ولد يقدّس البقر، ما الفرق بينكما في الواقع؟ الصدفة ليست حجّة. إن كان الإنسان يستطيع أن يحتج بالولادة عند الحق تعالى، فيجب أن تكون حجّة مقدّس البقرة مستقيمة أيضاً مثل حجّة مقدّس هبل واللات أو صاحب التثليث بل والملحد الذي يولد في عائلة ملحدة. إن كانت الولادة حجّة فيجب أن تسري على

الجميع، وهو كما ترى. الولادة لا تدل على أكثر من أن أمّك قذف في رحمها رجل بصورة ما. وأما الدين، فلا علاقة له بالعملية كلها. ودينك الذي ولدت فيه قيمته في الحقيقة صفر، ما لم يكن لك حجّة أخرى.

وقد نبهتني مَن ناقشتها في أصل الكتاب على أن الحجج الضعيفة في الإيمان يذكرها عادةً الذين يتبعون الدين بسبب الحجتين السابقتين، أي الميّتة، بمعنى أنهم يتبعون الدين واقعياً لأنهم ولدوا فيه وأكثر من حولهم عليه، ثم يبحثون عن حجج يرقّعون بها خرقتهم البالية هذه، فيقولون بالحجج الضعيفة السابقة. وهذا معنى سليم وتفسير متين. فعلاً، هذا ما يبرر الاحتجاج بتلك الحجج الضعيفة للإيمان، وإلا فالصادق في إيمانه لا يمكن أن يطمئن قلبه إلى مثل تلك الحجج التي يكفي فيها عادةً أدنى تفكير لكشف ضعفها أو حتى بطلانها.

الحجّة الثالثة الميتة

٣-ديننا مطابق للكتاب.

الفكرة: يوجد كتاب مقدس، وديننا مطابق لهذا الكتاب، بالتالي ديننا حق.

الرد: كلامنا عن ما وراء قولك "يوجد كتاب مقدس" بخطوة. يعني ما الذي جعلك تعتقد بقدسية هذا الكتاب وصدق ما فيه من دين أو الأشخاص الذين يتبعونه. يقول بهذه الحجّة فقط شخص بلغ من العمى مبلغاً جعله لا يميّز حتى بين الأصل والفرع في قضية بهذه الظهور، وهو بحد ذاته يدل على مدى العمى الذي يكون عليه أهل الأديان "الجائرة" التي تجور أول ما تجور على عقل الإنسان.

...-...

سؤال وردني من صاحبتي أثناء النقاش في أصل الكتاب: لماذا لم تذكر أمثلة مفصّلة عن مَن قال بهذه الحجج؟ فلعل البعض يقول بأنك اخترعت هذه الحجج ولا يوجد فعلياً مَن يقول بها. فلماذا لم تذكر ذلك؟

الجواب: هذه ليست دراسة اجتماعية لكنها فكرية. والأمثلة الجزئية والمقتضبة التي ذكرتها إنما هي للإشارة فقط. فكرة الكتاب هي بيان جوهر الحجّة الضعيفة ثم الميتة، حتى يعرفها أي إنسان حين يواجهها أو يسمعها أو تخطر بباله أياً كان لون الدين والمذهب وصورة الاحتجاج

بعد ذلك. هو كتاب مختصر يعبّر عن جوهر. وأما كمّية وكيفية احتجاج أهل كل دين ومذهب بهذه الحجج فهذا أمر يطول جداً وليس قصدي ولا أشتغل بها عادةً إلا في حالات نادرة.

ثم إني حاولت إعطاء مبرر منطقي لكل حجّة وبأقوى ما أستطيع في هذا المختصر، وقد أبيّن الحجّة بنحو أفضل حتى ممن يستعملها أو سمعتها منه، وقد أبيّن وجه منطقي لها بينما بعض من يستعملها يذكرها بدون تبيين وجهها المنطقي ويعتمد على صدمتها العاطفية أو تأثيرها في الرأي الذي يقبل المبهمات كشأن عوام الناس والمُقلّدة.

وعلى أية حال، هذه الحجج ضعيفة، هذا ما أردت قوله. فإن كان لأهل الأديان حجج غيرها، أو بيان أفضل لذات الحجّة مما بيّنته، فهذا غرض كتابي وهو إثارة الجدال والحوار حتى نرى وجه الحق وما هو الأحق بالاتباع. فكتابي هذا، مثل كتبي عموماً، بواعث للتفكير لا نهايات للفكر، إلى أن يستقرّ الأمر عند الحق "يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا مَن أتى الله بقلب سليم".

....